الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة المجاهدين وذوي الحقوق

جائزة أول نوفمبر 1954

(جائزة منشأة بموجب المرسوم الرئاسي رقم 96-240
المؤرخ في 23 صفر عام 1417هـ الموافق 9 يوليو سنة 1996)

العمل الفائز في مجال الرواية -الطبعة 26- سنة 2021
بحسب قرار لجنة التحكيم للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية
وثورة اول نوفمبر 1954 بتاريخ 20 أكتوبر 2021.

عنوان العمل: " نوميا رحلة النفي إلى كاليدونيا "

لصاحبه:
السيد سمير نور الدين دردور

المرتبة الثانية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة المجاهدين وذوي الحقوق

جائزة أول نوفمبر 1954

(جائزة منشأة بموجب المرسوم الرئاسي رقم 96-240
المؤرخ في 23 صفر عام 1417هـ الموافق 9 يوليو سنة 1996)

العمل الفائز في مجال الرواية -الطبعة 26- سنة 2021
بحسب قرار لجنة التحكيم للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية
وثورة أول نوفمبر 1954 بتاريخ 20 أكتوبر 2021.

عنوان العمل: " نوميا رحلة النفي إلى كاليدونيا "

لصاحبه:
السيد سمير نور الدين دردور

المرتبة الثانية

نومِـــيا

رحـلة النفي إلى كاليدونيا

روايـــة تاريخية

من تأليف سمير نور الدين دردور

"التَّاريخُ ليسَ ما تصنَعه الصُّدفُ ولا مكائدُ الاستعمار ولكن ما تصنَعهُ الشعوبُ ذاتها في أَوطَانها"

مالك بن نبي

شكر و عرفان

أشكر جزيل الشكر:

- الأستاذ أحمد دردور، الكاتب والرِّوائي لتوجيهاته
- الأستاذ بوداود عمير، الناقد الروائي والمترجم على مراجعته الروائية.
- الأستاذ إبراهيم عبد النور أستاذ اللغة والأدب العربي بجامعة بشار على المراجعة اللغوية،
- الأستاذ محمد برشان، أستاذ التاريخ بجامعة بشار على المراجعة التاريخية،

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى كل أعزائي: أمي، أبي، زوجتي، أولادي:وئام، عصام، تسنيم، مفدي زكرياء...إلى إخوتي وجميع أهلي..إلى كل من يبادلني شعور الأخوة والتقدير....

إلى أبناء جلدتي القابعين في جزر المنفى.

لقاء في مستشفى "براست"

"صباح الخير سيدتي جاكلين"

"صباح الخير دكتور فوران"

"كيف حالكِ اليوم؟ يبدو أنكِ أحسن حالا. تحسّنُ حالتكِ الصحية يبدو ظاهرا من ابتسامتك... "شكرا دكتور أنا ممتنة لك ولفريقك الطبي...أنا بخير. قال الطبيب: "ستكونُ ضيفتكِ هذه المرّة السيدة نوميا...فرنسية...قدمت إلينا البارحة من الجزائر"

"مرحبا بكِ" – " شكرا لكِ...مرحبا".

تقدَّمت نوميا بخطى بطيئة نحو سرير مقابل، ثم جلست متثاقلة على حافته مستعينة بذراع الممرضة. كانت نظراتها تخفي إرهاقا بدنيا ونفسيا وارتعاشُ أطرافها السُّفلى يظهر توترا في الحال وقلقا من المآل. بادرت إليها الممرضة بلطف وساعدتها على نزع معطفها الذي أصابته سماء "براست" المثقلة ببخار المحيط الأطلسي

وعلّقته على الحامل الجداري ثم استسمحتها في وضع حقيبتها السوداء على الرفِّ العلوي للدولاب الحديدي للغرفة.

بابتسامة عريضة، غادر الطبيب الغرفة رقم 13 بعد فحص جاكلين ونوميا وتقديم تعليماته للممرضة وتدوين ملاحظاته على صفحات ملفيهما الطبي.

كان شوق الممرضة "ماري" لمستشفى العين الصفراء بالجنوب الغربي للجزائر الذي عملت به لمدة سنتين يدفعها للسؤال بشغف عن زملائها وزميلاتها وعن جو المدينة...عن كثبانها الرملية وواحتها وشوارعها الأوروبية ولم تلبث أن جرّت كرسيا من زاوية الغرفة لتجلس عليه قبالتها وتخوض معها في حديث فيه الكثير من الحميمية التي فقدتها منذ أن غادرت الممرضة ماري الجزائر. لم يدم الحوار طويلا، كانت الممرضة مجبرة أن تخلي القاعة للفريق الطبي المناوب الذي بادر بدخول الغرفة للقيام بخدماته المعتادة.

استلقَت نوميا مرَّة أخرى على سريرها الأبيض الناعم بطلب من الممرضة الرئيسة وصاحَبَ تمدُّدها عليه سعال متقطع وأنين من ألم الصدر والمفاصل. لم يعد أثرٌ للحمَّى التي كانت تقَطِّعُ جسمها طيلة مدَّة الرحلة البحرية. بعد فحص طبي اعتيادي، خلدت نوميا إلى راحة عميقة وهي تتأمل سحب سماء براست الكثيفة من زجاج النافذة العملاقة. تنفَّست الصعداء بعدَ أن همَّ الفريق الطبي بالخروج من الغرفة. غادروا جميعا الغرفة التي لاقت نوميا بصديقتها الجديدة بعدما ضبط الدكتور فوران كل ما يلزم لمباشرة العلاج السريري وبعد الاطلاع مجددًا على ملف نوميا الطبي الذي صحبته معها من مستشفى العين الصفراء.

عمَّ الهدوء في الغرفة فلم يعد يُسمع إلا صراخ العاصفة المخيف وهي تهز النافذة وترتطم على وقعها دفَّتُها الخشبية.

صار مؤكدا لدى جاكلين أن صار لها اليوم رفيقة تشاركها وحدتها وفرصة سانحة لتدخل عالمها بأسئلتها وتكتشف أسراره كالمعتاد وتجد مادة دسمة لتدون تفاصيل يومياتها على كراسة مذكرتها التي بجانبها.

"أهلا بكِ سيدة نوميا. لا بأس عليكِ. أنا اسمي جاكلين...هل أنتِ بخير ؟ أرجو أن لا يكون السفر قد آلمك"

بزفرات متقطعة "لا بأس...لا بأس سيدتي...حالتي الصحية مستقرة رغم الرحلة البحرية المتعبة. أنا أفضَلُ ممَّا كنتُ عليه. لكن على كل حال، شكرا على كرم الاستقبال"

"استريحي...خذي راحتكِ".

شدّت الغرابة فكر جاكلين وهي تسمع الوافدة الجديدة ذات الجنسية الفرنسية كما تم تقديمها لها تتلفظ ببعض الكلمات العربية وتكرر لفظة "إن شاء الله" كلَّما تعلق الأمر بأمر مستقبلي. كانت لغتها العربية تميل كثيرا إلى

اللسان الأعجمي. كان باديا أنها لا تجيد فعلا العربية، لكن لها قيمة عاطفية اتجاهها حاولت أن توظفها في حديثها قدر استطاعتها. لعل هذا الرابط اللغوي الجديد الدّال على شراكة الانتماء تعتبره جاكلين إضافة نوعية لتوطيد علاقة عميقة بينها وبين الوافدة الجديدة ولتذليل صعاب الثقة في الحوار معها. حتَّى ملامح نوميا كانت توحي بسرٍّ مخبَّئٍ في سمرتها وفي تقاسيم وجهها.

بعد أن أخذَت نوميا قسطا من الراحة وتأقلمت مع جو الغرفة التي تتقاسمها مع جاكلين، بدأت تسترسل في الدردشة معها شيئا فشيئا وقد لمسَتْ من جانبها أنسا وموَدَّة خفّف عن نوميا أعراض المرض الصدري ووفّر لها راحة نفسية عميقة. "...ستجدين في هذا المستشفى الرعاية اللازمة لحالتكِ الصحية. لا تقلقي..." ." شكرا لك.. أرجو ذلك...إن شاء الله سيدتي."

كعادتها، تبدأ دوما جاكلين بالتعريف بنفسها للوافدة الجديدة : "...أنا من أصول لبنانية...من بلدة كسروان

بمحافظة جبل لبنان. هل تسمعين عنها؟ هزَّت نوميا رأسها ببطء ذات اليمين وذات الشمال. كنتُ مدرِّسة تاريخ بها إلى أن تزوجتُ من فرنسي كان يشتغل بمرفأ بيروت واستقرَّ بنا الحال هنا في براست منذ حوالي عشر سنوات...لازمني مرض الرَّبو وصِرت لا أغادر المستشفى عندما تتأزم حالتي الصحية...زوجي نيكولا يزورني عادة عندما يكون في براست وعندما يغادر إلى مدن الشمال الفرنسية في ترحاله المستمر، تنقطع بي كل سبل التواصل به إلاّ نادرا حتى عودته.". و ماذا عنك صديقتي نوميا!...نوميا...أليس كذلك؟

"...بالفعل هو كذلك...أمّا أنا !!...لست أدري من أين أبدأ قصتي! ..بطاقة هويتي تظهر أني فرنسية الجنسية ومولودة في كاليدونيا الجديدة ومقيمة حاليا في براست...

...في الواقع، أنا جزائرية الأصل، وُلدت فقط في كاليدونيا الجديدة وأقمتُ بها حوالي ستين عاما إلى أن

مكثتُ أنا كذلك مع زوجي عبود رحمه الله في هذه المدينة...براست..."

"الجزائر...لستُ أدري لماذا أحبُّ هذا البلد كل هذا الحب رغم أني لم أزره قط ولا تربطني به أي علاقة أُسَرية !!...أعتقد أنَّ اطِّلاعي البسيط والمتواضع على تاريخه وأمجاده هو الذي أكسبني هذا الحب والتقدير...فعلا أنا أحبُّ الجزائر..".

أضفى تصريح جاكلين هذا على نوميا راحة نفسية وسعادة تجلّت في ملامح وجهها الذي أشعّ برونق الابتسامة ودبَّ في أعماق نفسها دفء الأمان.

أضافت جاكلين "...هل تعلمين أننا في هذا المستشفى غير بعيدين عن ساحة الترسانة الحربية بميناء براست أين يقبع مدفع بابا مرزوق..." "بابا مرزوق ! لا أعرف شيئا عنه وعن قصة المدفع.." بدأ التحفظ يزول شيئا فشيئا عن جاكلين وسارع الحماس إلى إطلاق لسانها : "مدفع

بابا مرزوق الذي أرعب القوات الفرنسية عبر واجهة البحر الأبيض المتوسط في ذلك الزمان."

استوقفت نوميا قصة المدفع وألقت سمعها مصغية لحديث جاكلين. ألهم نوميا هدوء القاعة وسُكون العاصفة وإحساسها بتحسن صحتها. عدَّلت من استلقائها على سريرها موجهةً لجاكلين سؤالها عن قصته.

" الكل تقريبا يعرف قصة هذا المدفع الضخم هنا في براست. كان مِلكًا للبحرية الجزائرية في عهد العثمانيين، وزنه حوالي 12 طُنًا من النحاس الخالص وطوله سبعة أمتار ويمكنه إصابة أهداف على بعد خمسة آلاف متر بحري تقريبا. صنعه سبَّاكٌ بندقي في المصنع الحربي "دار النحاس" بالجزائر بطلب من حاكم الجزائر "الباشا حسَّان"، لا أذكر في أي سنة بالضبط لكن من المؤكد أن ذلك كان في حوالي أربعينيات القرن السادس عشر ميلادي.

بشهادة كل القوّات العسكرية الدولية آنذاك، إن هذه القطعة الحربية التي كان الجزائريون يدافعون بها عن "المحروسة" أي الجزائر كما كانوا يحبون تسميتها لم يشهد لها مثيل في العالم آنذاك.

يُعرف هذا المدفع الشهير هنا في براست بتسمية "لا كونسيلار La Consulaire " ، أي المدفع القنصلي، نسبةً كما يُروى إلى إدخال بعض الدبلوماسيين الفرنسيين في فوهته من قبل البحرية الجزائرية وقذفهم في عرض البحر على الأساطيل الأجنبية التي تحوم حول الساحل الجزائري. كانت هذه الطريقة إجابة للهجمات المتكررة على السواحل الجزائرية من قبل الأساطيل الفرنسية والطلبات المتكررة لاستسلام البحرية الجزائرية المعبَّر عنها بواسطة الدبلوماسيين الفرنسيين المفاوضين. أُعدم به رميا في عرض البحر كل من القنصل "لوفاشي" و القنصل "بيول" في بداية ثمانينيات القرن السابع عشر للميلاد.

استطاع هذا المدفع ردّ حملة ملك فرنسا "لويس" الرابع عشر سنة 1671 والأميرال "إيستري" سنة 1688."

"غريب هذا الأمر. لم أكن على دراية بهذا تماما!! وكيف نُقل إلى هنا؟..." تتساءل نوميا وقد شَغُفت بالاستماع إلى صديقتها جاكلين.

"حسب المصادر التاريخية، نقله البارون "غي دوبيري" Gué Duperré كغنيمة حرب تذكارية مباشرة بعد احتلال الجزائر وثُبِّت رأساً على عقب في مهرجان رسمي ويتربّع فوق مؤخرته ديك بلاد الغال الفولاذي. "يبدو أن المسألة هي قضية تشفي وإهانة رسمية وثأر من البحرية الجزائرية. أليس كذلك جاكلين؟". قالت جاكلين بعد أن التفتت قبالة باب الغرفة متحسسة احتمال دخول أحد: " ليس للأمر تأويل آخر يا نوميا."

" أعتقد أنَّه من الأسلمِ تركه في الجزائر بدلا من نفيه هو كذلك إلى بلادٍ غير موطنه الأصلي. حتى الأشياء لم

تسلم من سياسة الترحيل القسري !!" تقول نوميا ثم تضيف : " أمر فظيع حقا...من جهتي، أحتفظُ في ذاكرتي فقط بمرور الجزائريين والباريسيين على سجن كبير في شكل حصن عقابي في خليج براست. لطالما كان أبي يروي لي قصصه الغريبة التي مرَّ بها شخصيا وعايشها جزائريون مثله ." تقول نوميا بنبرة فيها الكثير من الأسف والألم.

" فعلا نوميا...هو كذلك....ذلك الحصن لا زال منتصبا على مرتفع خليج براست ولا زال يختزل في أروقته المظلمة تاريخَ قهرٍ للعديد من الجزائريين والفرنسيين...سترينَه عندما تغادرين المستشفى كئيبا وحزينا قابعا في عرينه المخيف، ستصيبك عن بعد أسهم الحزن والملل عند أول نظرة لجدرانه البالية. هو ليس بعيدا من هنا، مشيرة إلى الجهة الغربية للمستشفى"

لمحتْ جاكلين أثر مواجع ماضية قاسية في عيني نوميا وفي كلامها وسكوتها وتغيُّر ملامح وجهها. فَضَّلت

جاكلين أن تتوقف عن ثرثرتها إلى حينٍ وتترك المجال لراحة نوميا وهدوئها.

بعد عناءِ يومٍ صاخبٍ ومثيرٍ خلدت نوميا إلى النوم العميق ولم تستفق إلاّ على قرع الممرضات على باب الغرفة. كان الموعد لفرقة المناوبة الطبية مساءً لمراقبة حالتها الصحية وتناولها لأدويتها وحقنتها ووجبتها المسائية.

استراحةٌ خفيفة كانت كفيلة لتعيد إليها حيويتها وعودتها إلى نشاطها وتتجاذب مع زميلتها جاكلين المارونية أطراف الحديث وتتبادل معها الآراء حول الأديان والاستعمار وتجارب الحياة.

ميلاد نوميا

أرخى الليل الهادئ سدوله على براست، وتناقصت الإضاءة من أروقة وغرف المرضى، وعمَّ الهدوء الكئيب ولم يعد متاحا في هذا الوقت من الليل إلاّ الحديثُ الخافتُ، والمشي على رؤوس الأقدام.

وماذا عنك يا نوميا؟ جفونك لا زالت يقظة، و خلودك للنوم في النهار سيمنحنا فرصة للسمر. إن الليل طويل وممل هنا في هذا المستشفى. أستسمحك في نبش ذاكرتك والدخول في خصوصيتك الجزائرية والفرنسية والكاليدونية إن سمحت لي نوميا".

" ليس لي الكثير ما أرويه لك يا جاكلين، أكتفي إن استطعتُ بسرد بعض المحطات الأساسية من حياتي البائسة"

أخذَت نفَسًا عميقا ثم نظرت إلى جاكلين قائلة: "ماذا أقول لكِ !!!...تدرَّجتُ في هذه الحياة دون أن أحسّ

يوما أنِّي كنت أنتمي فعلا إلى تلك الجزيرة التي وُلدتُ بها وترعرعتُ فيها. رغم جمالها وروعة مناظرها الطبيعية إلاَّ أنِّي ذُقتُ فيها من العمل أشقّه ومن الذُّلِّ أفظعه. أدركتُ فيها معنى الحب الذي غمرني به والدايَّ رغم الشقاء والمهانة. عِشتُ في كاليدونيا الجديدة بتناقضاتِ مَن سكنها ومن استعمرها ومَن وَفَد إليها مُهجَّرا منفيا وهو يجر بين قدميه سلاسل القهر والهوان وأغلال الإبعاد عن الأوطان.

نَسَبَني أبي محمد بن عيسى المرَحّل قسرا من الجزائر سنة 1867 إلى جزيرة مسقط رأسي بعاصمة كاليدونيا الجديدة "نوميا"، إكراما لأمّي كلودين الباريسية رحمها الله التي فضَّلتْ أن أحملَ اسم مدينةٍ بدل اسم فتاة فرنسي متعارف عليه في الجزيرة. كل ذلك رفعًا لحرج إلصاق اسمٍ فرنسيٍّ بذرية محمد بن عيسى الجزائري ونكاية في قانون حظر الأسماء العربية الذي طبقته الإدارة الفرنسية في كاليدونيا الجديدة بحد السيف.

لم يكن يُسمح للأطفال الذين يريدون الالتحاق بمدارس الكنيسة الاحتفاظ بأسمائهم العربية، لذلك اختار والدايَّ اسم نوميا بن عيسى بدلا من عائشة بنت محمد بن عيسى الذي رُفِض جملة وتفصيلا. أُعجِبتْ أمِّي باسم تلك الأرض التي جمعتها بمحمد بن عيسى رغم حسرة النفي فيها ولوعة البعد عن بلدها بعشرين ألف كيلومتر وألم النفي الذي ظلت تتجرعه منذ أن وطئت قدماها هي كذلك تراب هذه الجزيرة المترامية في المحيط الهادي سنة 1871."

وكيف كان ردُّ فعل الإدارة من الاسم؟

أَربَك هذا الاسم ضابط الحالة المدنية في بداية الأمر، لكنه قبِله بعد استشارة واسعة. كلُّ الأسماء صارت مقبولة في كاليدونيا الجديدة للولوج إلى أقسام التعليم الإعدادي: الطيور، الأشجار، الأحجار، المدن، المعادن...كلُّ شيء...إلا أن يكون الاسم عربيا.

"حلٌّ ذكي...يبدو أنَّ عِنادَكم أصبح لصيقا بكم وصِرتم تجدون السبل والمخارج للهروب من تطبيق القانون...لكن لا بأس !!." يضيف ضابط الحالة المدنية موجها الخطاب لابن عيسى وزوجته بنبرة فيها الكثير من الحقد والاحتقار. إحساس بن عيسى بفرحة الازدياد خفَّف عنه حرقة نظرات الضابط وهو يحملق بسخرية في هندام أبي العربي المزركش بقيم النخوة والرجولة الجزائرية.

– وماذا عن أبيك وسبب نفيه؟

"...أبي محمد بن عيسى رجلٌ شهمٌ ينحدرُ من إحدى قبائل الجنوب الغربي الجزائري، وُلد بناحية سيدي بلعباس وأمضى طفولته وشبابه متنقلا بين سهول ومراعي مناطق التل وقصور وواحات الجنوب الغربي خصوصا الأقاليم التابعة إداريا للعين الصفراء والبيض. لقد غادرتُ العين الصفراء منذ يومين ووجدتُ كل ما ذكره لي أبي عنها حاضرا في آفاقها وأزقتها

وطبيعة أهلها. كان يجنح بخيالي وهو يُصوِّر لي بدقة فائقة وبطريقة مشوِّقة الهضاب والسهوبَ والصحاري والتلالَ والعيش في الخيم والقصور والواحات حتّى صرتُ أعتقد أنه سبق لي وأن زرتُ كل هذه المناطق التي لم يبرح يوما الحديث عنها...رحمه الله...كان يحب بلده حبًّا جمًّا".

بداية التهجيـــر

لم يعد الأمر شخصيا جاكلين !!. فالقضية قضية شعب أراد أن يخلِّص رقبته من طوق الاستعمار وينتفض على جبروته الأزلي. صدرَ في حقّ أبي حكم الإعدام في قضية اعتداء جيش أولاد سيدي الشيخ على الكولون الإسبان في ضواحي سعيدة وسيدي بلعباس والمشاركة في الهجوم على كتيبة الكولونيل "ألكسندر بوبراتر " Alexandre Beauprêtre .

روى لي أبي نقلا عن مَن شهِد المعركة أن كتيبة فرنسية مدعومة بفرق "القُوم" Goums تقوم بترصد تحركات أولاد سيدي الشيخ في المنطقة كلها بغية إبادتهم وتناهى إلى سمع سي سليمان بن حمزة باشاغا البيَّض استقرار هذه الكتيبة في عوينات بوبكر قرب "ستيتن" ضواحي البيض بتاريخ 8 أفريل 1864. قرر الباشاغا مباغتة الكتيبة الفرنسية فتنقَّلت سريَّته متخفية بجنح الليل المظلم في ليلة جامدة ليس لها من سبيل يبرز لها حالة

الفج إلاّ ضوء خافت ينبعث من القمر الذي حجبته السحب الداكنة. رابطَت السريَّة في سكون تام غير بعيد عن مركز الجيش الفرنسي على سفح هضبة قليلة الارتفاع ينتظر عودة الفارس إبراهيم المجذوب الذي انطلق منذ ساعة كالسهم يستطلع حركة وسكون جيش الكولونيل بوبراتر. عاد بعد فترة من الترقب يسابق الريح. أمدَّ سي سليمان بأخبار الموقع وعدد الجنود والدواب والأسلحة.

بدأ التقدم دون جلبةٍ تذكر، واقتربت سرية أولاد سيدي الشيخ من معسكر بوبراتر. كان "القوم" يحرسون المحيط الخارجي للمعسكر، أمَّا عناصر الجيش الفرنسي فكانوا على استعداد أمام خيمة يُرجَّح أنها للكولونيل بوبراتر. كان الرماة يقتربون بهدوء وصمتٍ، أما الخيّالة فكان تمركزها في ذيل السريَّة كي لا يكتشف صهيل خيلهم وقرع حوافرها. انشغل الجنود الفرنسيون بتسخين أطرافهم على لهيب نار موقدة وسط المعسكر على بعد

من خيلهم ومدفعيتهم. تنبه أحد الحراس لحركة غير عادية في محيط المعسكر. أطلق صفارة الإنذار وما إن تناول بندقيته للتصويب اتجاه مصدر الحركة حتى باغتته سرية سي سليمان هو وباقي الرتل بوابل من الرصاص ثم تقدم الفرسان وهاجموا المعسكر حتى وصلوا بسرعة فائقة إلى الخيمة المركزية. مزق سي سليمان غشاء الخيمة فوجد الكولونيل بوبراتر قد همَّ بأخذ سلاحه فأطلق النار عليه فأرداه قتيلا. رفع سي سليمان جانبا من الخيمة فبدأ يمطر الجنود بوابل من الرصاص إلى أن باغته أحد "القُوم" بطلقة نارية قاتلة في الظهر.

أثار مقتل سي سليمان بن حمزة حماس جنوده فاستبسلوا في القتال حتى استطاعوا إبادة رتل بوبراتر ولم ينجو من هذه الحادثة إلاّ ثلاثة من الجنود الفرنسيين، غادروا المعركة قبل انتهائها في غفلة من سرية أولاد سيدي الشيخ وفرُّوا إلى فرندة بالقرب من تيارت بعد ثلاثة أيام من الاختفاء لنقل الخبر إلى قيادتهم.

لم يعد في المعسكر إلاَّ الرماد وجُثث جنود الجيش الفرنسي وبعضٌ من فرقة "القُوم" الذين آثروا البقاء في الجيش الفرنسي بدلا من الالتحاق بسرية أولاد سيدي الشيخ مثلما فعل زملاؤهم.

غادرت السرية وهي تحمل جثمان سي سليمان ورفاقه الذين سقطوا شهداء في المعركة وافتكَّ عناصر المقاومة ما خف من أسلحة قتلى العدو واقتيدتِ الأحصنة وتلاشت كل ملامح السرية بسرعة في الأفق المظلم. شارك في هذا الهجوم كل من أولاد سيدي الشيخ وأولاد مطهر وبني عامر والجعافرة والشعانبة والمخادمة. قُتل في هذه الغارة كذلك مساعد الكولونيل بوبراتر النقيب "إستنار" وأحدثت دويا إعلاميا وأثرا بالغا على فرنسا وجيشها. واصل أخو سي سليمان محمد بن حمزة المقاومة واستشهد هو الآخر في معركة "قارة سيدي الشيخ" في الرابع من فبراير 1865ضد الجيش الفرنسي بقيادة "دوليني" Deligny

قالت نوميا : "...اتُّهم أبي ومرافقيه الستة والعشرين بحرق المحاصيل وسرقة ممتلكات المعمِّرين وتكوين مجموعة أشرار والمشاركة في الغارة التي قُتل فيها الكولونيل بوبراتر. كان أبي يتحسَّر على أنه لم تتح له فرصة المشاركة في الهجمات التي كان يقوم بها سي سليمان والخوض معه في معارك التي كان يقودها. لكن في الأخير حُكم عليه بنفس الأحكام التي نطقت بها مجالس الحرب ضد من شارك في الغارة ضد الكولونيل بوبراتر. صدر في حقه حكم الإعدام ثم حُوِّل بعدها الحكم إلى الترحيل déportation إلى كاليدونيا الجديدة.

حاول المستعمر إفراغ ثورة أولاد سيدي الشيخ وثورات شعبية أخرى مماثلة التي آمن بشرعية مطالبها محمد بن عيسى من قيَّم القداسة في رد العدوان ورفض كل أشكال الاحتلال والتدنيس وإبعادها عن كل ما هو سياسي.

قالت جاكلين :" وأين جرت المحاكمة وكيف كانت مجرياتها ؟"

"شغلت هذه المحاكمة التي جرت في مجلس الحرب بوهران الرأيَ العام وسُجِّل الترحيل في قوائم الرحلات البحرية. نُقِل محمد بن عيسى هو ورفقاؤه إلى كاليدونيا الجديدة سنة 1867 بواسطة سفينة "كالفادوس".

لم تكن تلك الرحلة البحرية وحيدة بل تلتها أفواج أخرى من أسرى مقاومة أولاد سيدي الشيخ وثورة الباشاغا محمد المقراني والشيخ الحدَّاد والشيخ بوعمامة ومقاومات أخرى واستمرَّ الترحيل دون انقطاع بداية من 1864 إلى غاية 1921 بلغ حينها عدد المنفيين الجزائريين 2016.

منذ البداية شدَّ انتباه جاكلين بديهة نوميا في سرد الأحداث وتذكر أسماء الأشخاص والقبائل والأماكن "... الظاهر أن تلك المقاومات الشعبية في الجزائر كانت تشكل خطرا على مشروع فرنسا الاستيطاني،

لذلك اتَّخذت كل الوسائل لإبادة الشعب الجزائري مِن قتل ونفي وتهجير وكان الهدف جليا منذ الوهلة الأولى: اجتثاث المقاومة الجزائرية من الجذور..."

"هو كذلك يا جاكلين".

الحياة في المنفى

"هل لكِ أن تحدثيني عن حياتك في كاليدونيا الجديدة. عن طبيعتها وجوِّها ومائها وبحارها وسكانها....عن كل شيء فيها ؟ " "...في كاليدونيا الجديدة أَلِفتُ كل شيء غير مألوفٍ، نخيلٌ مرتفعةُ العنانِ و أشجار باسقاتٌ لها ظلالٌ يُخضَّر في سوادها البارد جني ما أحاط بالواحات من أشجار الليمون والتين. ليس من المعهود في جزر المحيط الهادي رؤية مهرجان جماعي تتخالط فيها ألوان خضرة الواحات ببياض ثياب الرجال وتمتزج فيه تهاليلهم الدينية بزقزقة الطير ورقرقة جداول ماء السقي...للقدرِ أحكامُه.

تآلفُ أشجارِ جوز الهندِ الأسيويةِ مع نخيل الجزائر الصحراوية ضمن نسق مناخ المحيط الهادي الرطب هو في حقيقة الأمر رسالة كونية تتجلَّى فيها أبسط معاني تقارب الثقافات والحضارات وترسم مستقبل تعايش

وانسجام الشعوب فيما بينها. بالأحرى هذا ما أعتقد أن يكون عليه العالم."

"أشاطركِ الرَّأيَ نوميا". "كل شيء في ربوع الواحات والبساتين الكاليدونية يُذكِّر بطبائع الجزائريين وطبيعة أرض الجزائر ويُعيد تصوير مشاهد نظام "التويزة" على ضفاف أودية القصور القديمة في الجزائر. و"التويزة" يا جاكلين هو عادةٌ قديمةٌ وموروثٌ حضاريٌّ منذ القِدم عرفها سكان شمال إفريقيا ويتمثل في مساهمة السكان في انجاز جماعي لنشاط متعلق بالزراعة أو البناء.

يفتخر أبي بقوله دوما أن كل القوانين التي فرضها الاستعمار بقوة الحديد والنَّار لم تستطع وأدَ نظام "التويزة" في قلوب السكان. كان يُشكِّل هذا النظام بامتياز مظهرا من مظاهر الوحدة والتآزر في بناء المساكن والمساجد وحفر الآبار وجني المحاصيل".

من يوميات المنفيين

المحيط الهادي...!! أي هدوءٍ بقي لهذا المحيط بعد أن اخترقتْ سكونَ جزرِهِ بواخرُ الحملة الاستعمارية الحاملة لآلام المنفيين واحترقت فيه كل آمال من اجتُثَّت جذورهم من موطنهم الأصلي بإذنِ وقعِ مطرقة قضاءِ الجيش الفرنسي وتلطَّخ بمياهه الزرقاء الفاتحة سوادُ ظلمِ وجُور القوات الغازية عندنا و–الفاتحة– عندهم !!...فتوحات ليست كالفتوحات وهِجرات ليست كالهِجرات، أملَتها ضرورة فرض "الحضارة" الاستعمارية على كل الحضارات.

لم يعد لمنطق العدوان وطنٌ، فكل الأوطان أوطانه وكل البشر عبيده وكل الشرائع لا وجود له مقابل شرائعه.

"...لم يكن يُسمح لنا في كاليدونيا الجديدة في بداية عهدنا إبداء معتقداتنا وتقاليدنا وكل ما يميز ثقافتنا. إنّها بداية المسخ الحضاري ومنتهى لعنة الاستعمار التي ما

فتئت تُطارد أبي وبني جلدته ومن حام حول أفكاره التحررية منذ أن تسلّطت غطرسة الفرنسيين على أقدار وأرزاق الجزائريين.

حمولةُ البواخر الفرنسية التي كانت تمرُّ من هنا كانت في نظر الفرنسيين، نفايات من البشر "الخارجين عن القانون"...أصحابُ العقولِ المتحجرة التي عجزت عن فهم مقاصد فرنسا "الحضارية" !!

قيل أنَّ أبي وكل من نُفي معه وبعده كانوا يهددون أمن فرنسا في فرنسا وفي بلاد المغرب وفي أي شبر من العالم لا زال لم تشمله فرنسا "بحضارتها". بل كانوا يهددون مستقبل أحلام فرنسا في إفريقيا جميعها. هذه "النفايات البشرية وحثالة الكائنات الحية" الواردة في مصطلحات قاموس الاستعمار...لم يكن لها من حل بعد المجازر والمحارق والمداخن إلا أن تُصفَّد وتُسلَك في الأغلال وتُلقى على أعين من العالم الصامت الحقير في تلك السُّفن والبواخر العملاقة في أرض هي في الأساس ملك

لأهلها...رمت بهم قرارات مجالس الحرب الفرنسية للتخلص من ضجيجهم ومن عويل نسائهم وصراخ أطفالهم ومن عصيانهم وتمردهم على إرادة فرنسا، فاستعمرت بهم بلاد غيرهم وعمدت على طمس هويتهم ونسخهم عن أصلهم رغم أن التاريخ اعترف لأكثرهم بالعلم والثقافة وشرف المكانة في بلادهم وبين أهليهم. لم تستطع نوميا حبس دموعها وفك ضائقة حنجرتها وهي تستعيد ذكرياتها في حضرة رفيقتها. شاركتها جاكلين دموع الأسى والحزن، لكن ما فتئت نوميا أن غيَّرت مجرى الحديث عن المآسي إلى الدعابة قائلة: إليكِ جاكلين هذه الطرفة. إنَّ معلِّم القرآن المعروف في جنوب الجزائر بتسمية "الطالب" نسبةً لطالب العلم، ذلك الناسك المعلِّم صاحب السياط والقابع في الكتاتيب والذي تعوَّدت أناملُه رِقَّة القلم المصنوع من القصب، أصبح يجيد ضرب صخور جبال كاليدونيا بمعاول الحديد. كان هذا التحول يجلب له

الدعابة من أبي بن عيسى حين كانوا يستريحون من عناء الدقِّ والحفر، ويصمتُ سياط كولون المحاجر عن نهش ظهورهم.

:"...أيها الشيخ !!...اصبر على السَّوط فإنَّ عملَك المرهق الذي تُسخِّره في استخراج وقود البواخر سيكلَّل بنقل أبيك وإخوتك إلى هذه الجزيرة يوما ما. تذَكَّر ذلك جيدًا... لقد اشتقتَ إليهم يا سي بلعيد..." " ...دعني وشأني، ألا ترى ما أنا فيه يا بن عيسى...".

"...كل شيء في سبيل الله...إن أي موضع من جسمِك تصيبه سياط "الرومي" هو موضع لن تمسه نار جهنم بإذن الله. ألم تكن تقول ذلك لتلاميذ القرية المتهاونين في حفظ القرآن والمشاغبين، حين كانت لسعات سياطك تمزق أقدامهم في حصص "الفلقة"؟ !!.يضيف بن عيسى ضاحكا وقد اكتسب هذه المرّة ابتسامة عريضة من بلعيد وضحكات متواصلة لزملائه في نبرتها التي تخفي الكثيرَ من الأسى والألم.

كان أبي بن عيسى يجيد تحويل المشاعر من أسفل درك اليأس والإحباط إلى منازل الصمود والأمل. معنوياتٌ كان في حاجتها هو وكل أصدقائه في أحرج مرحلة من الحياة.

استرسَلَت جاكلين في إنصاتها إلى نوميا وأضافت:" اللعنة على الاستعمار. لم يكن أباكِ وإخوانه الجزائريين يا نوميا هم فقط من لفظتهم سفن الاحتلال في تلك الجزر البعيدة في المحيطات ولم يكن قرار النفي ديدن الفرنسيين فحسب، بل عادةً لجأ إليها الإنجليز في قضايا وأد الثورات والاضطرابات في مهدها.

بالنفي والإبعاد كُمِّمت الأفواه وصُفِّدت الأقدام وكُسِّرت الأقلام وأُفرغت المحابر ومُلِئت المحاجر وزُجَّ بالجميع في الحصون المحصنة ثم أكواخ الحديد في جزر البحار والمحيطات. و هل بات يغيب على أحد نفي كل من تزعَّم الإصلاح واستنهضَ الهمم لرفض الاستعمار وحاول نفض الغبار عن هويته ووطنه ودينه وعرضه. ألم

يُنفَى إلى يابسة المحيطات أحمد عُرابي ومحمود سامي البارودي وعبد الله النديم إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا)، وسعد زغلول إلى جزيرة مالطا ثم السيشل، والشيخ عبد الكريم الخطـابي إلى جزيـرة "لارينيـون" Ile de la Réunion بالمحيط الهندي؟؟ ومثلما نقل المنفيون الجزائريون الأوائل نوايا النخيل إلى كاليدونيا الجديدة فإن عُرابي والبارودي ورفاقهما استقدموا فسائل المانجو إلى مصر لأول مرّة."

"...لكن نفي أولئك لهؤلاء لم يكن في اعتقادي مسخا للقيّم الشخصية والقومية التي كان يتحلّى بها المنفيون مثلما وقع لنا في كاليدونيا الجديدة وغويانا ولم يكن بذلك الحجم من الأعداد والمسخ والمهانات يا جاكلين".

الطفلة الأسطورة "إيمَّا بيفو" Emma Piffault

حتى الأطفال لم يسلموا من القمع وتَدمير براءة الطفولة. كم هي مؤثرة يا جاكلين قصة البنت الصغيرة إيمَّا بيفو ! وفدت إلى كاليدونيا الجديدة رفقة أمها وعمرها تسع سنوات للقاء والدها "بيفو" المرَحَّل من فرنسا في أعقاب ثورة الباريسيين. نشأت في حصن "ديكوس" Ducos رفقة ألف من النزلاء. كانت محبوبة لدى الجميع، الكل كان يحب الاستئناس بحديثها ولعبها ورؤيتها. كبُرت إيمّا على هذا الحال وتعلق بها الكبير والصغير إلى أن أصيبت بمرض السل.

أقعدها المرض الفراشَ واتخذت هي وأمها من عيادة "ديكوس" مأوى تعالج فيه وحُرِم النزلاء من رؤيتها وأصبحت تشكل حدثا مهما في نفوس المعتقلين ورمزا لقضيتهم.

بعد أيام من السؤال والاضطراب، وقع خبر وفاتها كالصاعقة في "ديكوس". عمّ الحزنُ قلوبَ النزلاء واستشاطوا غيظا وبدأ التمرد والعصيان يطفو على سلوك النزلاء. أظهروا عدوانية غير مسبوقة تَمَّ على إثرها تعزيز صفوف الحراسة بوحدات من الجيش لقمع التمرُّد.

توفيت المسكينة وعمرُها لم يكتمل ستّ عشرة سنة.

إنَّ البنتَ التي وفدت إلى ديكوس وكانت بنت أحد المنفيين الفرنسيين، اكتسبت محبة ومودة كل السجناء وأصبحت بنتهم جميعا. كانوا ينظرون فيها أولادهم الذين تركوهم في باريس.

تخليدا لها، بُنِيَ لها نصب تذكاري يعلوه تمثال سُمِّي بـ" تمثال عذراء ديكوس الحمراء" حتَّى عبثت به أيادي الزمن فهُدم ولم يبقى منه سوى رأس التمثال الذي زُيّنت به أروقة متحف مدينة نوميا.

عمارة الجزيرة

بعد قضاء مدَّةَ الحجزِ خلف أسوار الحصون العقابية في كاليدونيا الجديدة ونفاد أحكام الأشغال الشاقة في المحاجر والمناجم واستنفاد ما بقي من صبرٍ على تحمُّل الإهانة والإدانة، سُمح للمنفيين الجزائريين بإطلاق العنان لأيديهم وأرجلهم ومغادرة ظلمة الزنزانات الكئيبة وأنفاق المناجم الضيقة إلى الانتشار في "نيساديو" Nessadiou بل في جميع أرجاء "بوراي" Bourail سعيا وراء الحصول على امتيازات الأرض لمزاولة أعمال في حقول الزراعة.

غادروا ضيق الأفق الملطخ بسواد البؤس والقهر والأمراض النفسية والتنفسية إلى رحابة الطبيعة المزركشة بزرقة سمائها وخضرة مناظرها. ولعل سبب تحرير الجزائريين هو فقط فراغ مخازن الإدارة الاستعمارية بعدما أصبَح المُرحَّلون يشكِّلون عِبئًا على ميزانيتها.

طال مشكل الوجبة اللعينة التي كان يرفضها الجزائريون...لحومها، شحومها ،مرقها...كلُّ تلك التي لم يُذكر اسم الله عليها هي محرَّمة كحرمة الخمر وباقي الخبائث. تعِبت الإدارة الاستعمارية من أذواقهم ومن تعنتهم وبدا لها أن أجسامهم بدأ يدبُّ فيه الخَوَرُ والضَّعف. لم يعد من حلّ إلاّ فكّ أيديهم من قيود الحديد في المعاقل والحصون ووضعها في قيود الضرائب والرسوم.

"...أرحم من أن يستمروا قابعين في دهاليز الحصون والسجون.." تقول جاكلين.

أشرف الأميـــــرال "قويــان" Guillain ذو النزعـة "السان سيمونيـــة" Saint Simonienne إلى إنشاء مزارع وقرى فلاحية وتوزيعها على المنفيين. فرصة عظمى تلك التي حَظِيت بها خزينة المستعمرة في كاليدونيا الجديدة لتطعم فرنسا من جوع وتؤمِّنها من خوف.

كان جليا أن يستسلم الجزائريون لشروط الاندماج في الوضع الجديد, بل كان مسَلَّمًا به أن تتميَّع كل مظاهر القيم الدينيَّة والثقافية والاجتماعية منذ الإقرار بزواج الجزائريين المُرَحَّلين بالفرنسيات أو الكاناكيات الماليزيات. كل شيء أصبح مسموحا به الآن...كل شيء...إلاّ حلُمُ العودة إلى الجزائر وطمعِ العيشِ وفق قيّم الأجداد.

أُهبَةُ الزواج في المنفى

أمِّي "كلودين"...فرنسيّة، ساقها قدر ثورة البلديين في باريس هي الأخرى إلى جزر الأحكام العقابية في كاليدونيا الجديدة. لم يكن في كاليدونيا آنذاك أي امرأةٍ تحملُ قيَّم ما يبحث عنها المنفيون الجزائريون ولم يُسجِّل تاريخ الإبحار القسري ترحيل أي امرأة من الجزائر أو غيرها من الدول العربية.

أصبح الزواج المدني إذن من منفيات الكومينارد الباريسيات المحكوم عليهن في أحداث بلدية باريس هو مخرج بن عيسى والكثير من الجزائريين. النتيجة كانت بارزة لكل الراغبين في القِران...بركة الكنيسة الكاثوليكية سانت جوزيف دو كلينيSaint Joseph de Cluny، أسماء الأطفال...فرنسية وتعليمهم في مدارس هذه الكنيسة، وبالتالي ستصبح مع الأسف، كاليدونيا وطنهم وفرنسا أمهم والفرنسية لغتهم والكاثوليكية دينهم. يعود انتشار الدين المسيحي في سكان "الكونييه" الذين كانوا يقيمون في جزيرة الصنوبر إلى الآباء "الماريست"Maristes وبالخصوص الأب "قوجون " Goujon الذي وجد سهولة في تمسيح قبيلة بأكملها.

عندما كان يتناهى إلى سمع المقيمين في جزر كاليدونيا أنَّ شُحنةً من نساء الكومينارد السجينات قد أقلعت من ميناء مارسيليا، كان يتزايد شغفُ المنفيين الأوروبيين والجزائريين المفرج عنهم على سواء.

أصبح الكلُّ يتطلع إلى هذا الحدث نصف السنوي. تُشَنَّفُ الآذان وترتبك الألسنة وتُمد العيون نحو أفق البحر ويسبح الرجال في أحلام وأوهام لا متناهية. الكل يترقب بلهفٍ إرساء الباخرة الحاملة لأمل الاستقرار والسكينة. لا حديثَ يُسمع على جنبات الشاطئ الهادئ للجزيرة إلاّ الحديث عن السفينة القادمة.

كان بن عيسى يجنح بخياله وهو يتأمل الأفق البحري ويردد بصوت حزين: "...ما أتعسني وما أسعد هذا الطائر البحري. يحلِّقُ في السماء كيف يشاء...يرتفع حتى يبلغ عنان الغمام ثم ينخفض حتى يُقَبِّل سطح الماء...". لم يعد يفكر لا في العودة ولا في الهروب...الكلُّ أصبح لديه من رابع المستحيلات. استسلم للأمر الواقع وأصبح يفكر في إقامة أسرة تخفف عنه لوعة الفراق وتنسيه ألم النفي عن الديار وتذهب عنه غيض ضائقة العيش في البلاد الغريبة.

بذوبان قرص الشمس في المياه البعيدة وتلاشي احمرارها في الأفق البحري وذهاب ضيائها من على يابسة المحيط، تتقد أنوار نجوم السماء ببياضها لتبعث أمل الوصول المعتاد للبوارج المثخنة بأوزار أجساد الباريسيات والمثقلة بأحكام الترحيل الجماعي. ما إن يأتي خبر الإرساء حتّى يتوارى المعنيون عن بعضهم ويتسلَّلون لواذا في سباق نحو الظفر بالأماكن الأولى للتعبير عن رغبتهم في الزواج.

تُسجَّل الأسماء وينتظر المعنيون دعوة مصالح تحريات البلدية للقيام بتحقيق "حسن السلوك" والتَّعرُّف بعمق على أهلية طالب الزواج وقدرته المالية واستيفائه واجباته الضريبية. يُبلَّغُ قرار الأهلية إلى الكنيسة ويقبع الفائز بالثقة يترقَّبُ والشوق يحذوه لرؤية عروس البحر الفرنسية المرسلة على ذات ألواحٍ ودُسُر لتقاسمه صدأ أكواخ الجزيرة القصديرية.

تلك الأكواخ المنتشرة في شكل "قيتوهات" عفنة تستعد لاستقبال العرسان الجدد في ديكور بهي يغلب عليه لون أزهار عبَّاد الشمس وحبات الذُّرة اليانعة.

يُحدَّد الموعد بالتنسيق مع راهبات الكنيسة وتُبرم لقاءات التعارف بين الطالب والمطلوب. بعد العرض المتبادل تُعطى لهم فرصة التحاور المباشر...النتيجة لا تخلو من أحد الوجهين. إمّا ظفر بامرأة، قد لا يشترط فيها الحسن والسن، تشاطر طالب الزواج قسوة العيش في الجزيرة العقابية في كنف الزوجية المرجوة أو رجوع بخف حنين يصحبه جر لأذيال الخيبة والإحباط، يبقى يجتر آثاره المرَّة طالبُ الزواج البائس إلى غاية الحمولة المقبلة التي لن ترسو مجددا إلا بعد ستة أشهر على أقل تقدير.

بمجرد الموافقة والإمضاء في سجل عقود الزواج، يدفع الزوج 150 فرنكا فرنسيا للمؤسسة الكنسية يعود منها جزء ضئيل إلى الزوجة على سبيل المهر.

كان الجزائريون يخشون أن تصادفهم قصة بلقاسم التي وثّقها "جاك دير" Jacques Dur في مذكرته. "...ما أتعسك يا بلقاسم؟ إنك غافل عما يقع في بيتك. !!" "ماذا تقصد يا علي؟" " عليك أن تتأكّدَ أين تذهب زوجتك ليلا.."، "..عمَّن تتحدَّث؟ عن زوجتي "إيميليا؟؟

إنها تذهب لعملها...لا أظنها تقوم بشيء مخالف!!. تقبَّل عذري!... يا أخي، لكن عليك مراقبة زوجك". بدأت الظنون تسود فكرَ بلقاسم حتى وصله الخبر اليقين. أصبحت المسألة مسألة شرف. إن الزوجة التي قاسمها الحاضر والمستقبل تتردد على أكواخ مشبوهة كانت تتعاطى فيها الرذيلة مع باقي الأوروبيين أثناء غيابه في مزارع "نيساديو". حينما تتبع خطاها وتأكَّدت لديه خيانتها. انتظر رجوعها إلى بيته مترنحة في أزقة الحي القصديري تجر عباءة بؤس ممزقة وروائح الخمر

النتنة تفوح من جنباتها هذه المرّة وتطاردها كلاب الحي بنباحها.

استَلقت البائسة في مخدعها ورحلت في نوم عميق لم تستفق منه أبدا. لقد كمَّم المتهوِّر بلقاسم أنفاسها بوسادة وأجهزَ عليها بثقل جسمه حتى سكنَت أطرافها المضطربة. بلَّغ بلقاسم المخفرَ بموتها المفاجئ وهو يذرف دموع حرقة الخيانة...دموع لا علاقة لها بوفاتها. قيل إنَّ المحضَرَ أُغلق بشهادة طبيبٍ لم يجد أثرا واضحا للعنف على جسدها. بقي الريبُ يراود المحققين رغم إقفال ملف القضية. كان في الأمر ريب كبير.

تخلَّص بلقاسم من زوجته الباريسية وانتظر سنةً بحالها يُكابدُ كابوس الخيانة إلى أن قدِمت الحمولة النسوية من مارسيليا. ترقّب الباخرة الوردية وسجَّل مجدَّدًا في القائمة ليستقر لديه قرار الزواج من "هونورين ماسي". تزوج بها رغم تحفظ مصلحة التحريات.

لم يمض شهر واحد من زواجهما حتى بدأت تتعرف على أوكار المجون مثل سابقتها، لتسقط هي الأخرى في وحل الرذيلة ويرتكب بلقاسم جريمته بنفس الطريقة، لكن السيناريو الذي ركَّبه بلقاسم هذه المرة لم يفلح في تبرئة ذمته خصوصا وأن الجريمة سبقها صراخ وعراك وتحطيم لأواني الكوخ وسمع به الجيران. حُكم عليه بالإعدام بعد قضاء سنة من التحقيق والحضور إلى جلسات المحاكمة وظل ينتظر أن تسوقه الزبانية إلى مقصلة "ديكوس". كانت الخيانة متفشية تحت تأثير البؤس والحريَّة ووأد الأخلاق وقيّم التفسخ القادمة من شوارع باريس ومارسليا وليون.

بن عيسى وكلودين

"...لبساطته وتواضعه، كان والدي محمد بن عيسى واعيا ومتشبعا بقيم دينية جميلة انشرح صدري لها. كان يحسن الكتابة بالحرف العربي وتعلمتها منه، غير أني نسيت الكثير من الكلمات. كان يحب الثرثرة معي وأنا طفلة حول تلك القصص والأساطير المثيرة التي خلفها وراءه في الجزائر. تِكرارُ استعادتها بأمان ودون تغيير جعلني أحفظها بل وأعيشها بكياني وخيالي، أمَّا أمي كلودين فجوهرة خلوقة نبعت في أرستقراطية شارع الحرية بباريس، خلوقة، سمحة، متعلِّمة، كانت رافضة لوحشية الاستعمار في الجزائر ومنددة به ومحبة لكل ما هو جميل. كانت عاملة نشيطة في معمل نسيج...".

عُقِد قران والديَّ محمد بن عيسى وكلودين في بوراي سنة 1883 بعدما أُطلق سراحهما وترك كل واحد منهما جحيم الحصون العقابية في كاليدونيا الجديدة.

تعرّف عليها بعد لقاءات متكررة جمعته بها في رواق التعارف وأُعجب بجمالها وذكائها وأخلاقها. تبادلا قصص القهر والنفي وسرَدَ عليها قصته مع ترقّب وصول الباخرة الوردية ومشروع حياته في هذه الجزيرة. استقر في ذهن كلودين صلاح نية محمد بن عيسى فقرَّرت الزواج منه. تمَّ القران برعاية من راهب الكنيسة أمام ضابط الحالة المدنية ودُوِّن في صفحة السجل المدني.

أما العقد الشرعي، فأقنع محمد بن عيسى كلودين أن يجري أمام سيدي مولاي الإمام الفقيه في بيته واستُكملت إجراءات القران بحضور العدول وبتلاوة سورة الفاتحة ورُفعت أكف الضراعة بالدعاء للزوجين. أرهقَ بن عيسى مهر الكنيسة واعتبر الفقيه مولاي ما وصل الزوجة من ذلك المهر هو فعلا صداقها.

رغم نكد المعيشة والتنقل المستمر بين أكواخ الجزيرة، عاشا سعادة اختلقاها من العدم. لا زالت نوميا تتغنى بتلك العلاقة الطيبة بين أبويها. تقول :"نشأتُ في بيت

جدرانه وسقفه من صفائح القصدير المتآكل وفراشه مطارح محشوة بقصاصات أكياس القمح والذُّرة. كان ذلك الكوخ الحديدي لا يرد عنّا حرَّ الصيف ولا قرَّ الشتاء ولا يقي متاعنا من مياه الأمطار الباردة التي تتدفق من أعلى السقف الحديدي أو تتسرب سيولها مِثْل الجداولِ من تحته. لكن، كانت المحبة التي كنتُ أتقاسمها مع والديَّ أعظم هبة إلهية أنستنا قهر الحال والمآل.

يتوسط الكوخ القصديري الذي كان يأوينا، حقل زراعي محفوف بأشجار الليمون ويغلب عليها نبات الذرة وتحوم حوله بعض الحيوانات الأليفة كالماعز والدجاج التي تتصيّد ما عجزت أن تتلقفه أيدينا، لتحوِّلَه بعد ذلك إلى مخلفات حيوية تغرسها بأطرافها في التربة الفقيرة.

امتلك أبي محمد بن عيسى امتياز قطعة أرضية مباشرة بعد تحريره مقابل دفع ضريبة سنويّة وإلى مدى الحياة

مقدرة بـ 40 فرنكا فرنسيا و12 سنتيما. ولكِ أن تقارني جاكلين هذا المبلغ بخمسة فرنكات سعر كيس 100 كغ من الذرة الذي كان ينتجها هو أمي كلودين ويتجشمان عناء نقلها إلى تعاونية الكولون في نيساديو !!"

نقل المنفيون الجزائريون من بلادهم طريقة حفظ الألبان وصنع الأجبان وأحيَوا نظام "التويزة" في الحصاد والبذر وحفر الآبار ودرس المحاصيل بعدما منعها قانون الأنديجينا في الجزائر. كل هذا الصنيع المتكامل في نظام قبلي خفف من المعاناة وجلب الأرزاق وقرَّب المسافات بين الجزائريين حتى أُقيم مجتمعٌ متميز في عيشه وتقاليده ونظام سيره. مجتمع مصغر ربطته فيما بعد بالمجتمع الأوروبي والكاناكي علاقة صداقة وجوار.

استوقف السعال نوميا وبادرت جاكلين بمناولتها قنينة الماء "استريحي ولا مجال الآن للحديث. يبدو أنك لن تتوقفي عن استعادة كل شيء !"

في صبيحة اليوم الموالي، وبعد قيام الفريق الطبي بخدماته الصحية المعتادة، بادرت جاكلين نوميا بإضافة تاريخية يبدو أنها تحصلت عليها من كتابٍ، استلطفت مراقبة المصلحة في جلبه لها من مكتبة المستشفى.

مفاد القراءة التاريخية أن السكان الأصليين الكاناك كانوا يسمون أرضهم "الكايو" نسبة إلى اكتشاف حجر النيكل سنة 1873 في جبل "موندور" المقابل للعاصمة نوميا بعدما اكتشافها لأول مرة البحّار الشّهير جيمس كوك James Cook سنة 1774. كانت تلك السنة البائسة أول احتكاك للرجل الأبيض بهم. تعرّفوا حينها على جبروته وقسوته وعلى لباسه وأسلحته وحيواناته المرعبة كالكلاب والخنازير.

استغل الرجل الأبيض الطبيعة البدائية للكاناك فجعل منهم العبيد والإماء واتخذ لبيته، الذي بنته أياديهم تحت سياطه، الخدم والحشم ومُجِّد الخنزير القادم معه من أوروبا. "أجل صديقتي جاكلين، ذلك ما لاحظتُه بأم

عيني ولست أزايد عليكِ. لقد حرص أبي بن عيسى أن يربِّيني على تعاليم الدين والقيّم الإنسانية المشتركة بين كل الناس.

لم تكن أمي كلودين ترى مانعا من ذلك بعد إيمانها بعدالة قضية بن عيسى وإيمانه بقضيتها وبسلامة القيّم الحضارية التي ينادي بها دينه ودينها، وهذا ما كسبها مودّته واحترامه. كانت تخشى فقط من اكتشاف ذلك من قِبل الإدارة الفرنسية وأُحرَمَ من التعليم لدى مدرسة البنات التي كانت تشرف عليها راهبات الكنيسة في بوراي.

تعلمتُ في مقاعدِ الرهبنة الكاثوليكية اللغة الفرنسية والحساب والتاريخ والدين المسيحي وبعض الفنون البيتية المتعلقة بالنسيج والخياطة. رغم اختلافي العقدي إلاّ أنني لازمت المدرسة المسيحية واحترمتها وأحببتُ هدوءها. لا تظني أنَّ ما أقصه عليكِ من الثبات على مبادئ وتقاليد الأجداد كان عامًّا لدى كل أبناء وبنات المنفيين

الجزائريين. الحقيقة مُرّة يا جاكلين، غالبيتهم أُجبرَ على التنكُّر لتلك القيّم وانساق وراء تيار ثقافة المستعمر الفرنسي.

اندثر اللسان العربي والأمازيغي تماما من التعامل بين ذرية الجزائريين، ولم يعد يعرف من القرآن وتعاليم الإسلام عندهم إلاّ الشيء القليل. تغيّر الثياب والسلوك وغُيِّبَ الحنين إلى الأوطان ولم يعد الخوض في الحديث عن الجزائر ومآل أهلها إلا خاصا ببعض المنفيين أنفسهم الذين عجزوا عن التنقل إلى فرنسا أو الجزائر وبقوا بعد العفو الشامل في كاليدونيا الجديدة. غيَّب الموت أكثرهم وبقيت ذريتهم دون عنوان جزائري. كيف لا وقد أعدَّت فرنسا مدارسها لتعليم مبادئ مجتمعها وفرض ثقافتها ومبادئ الكاثوليكية !!

كان أكثر ما يعجبني موقع الكنيسة البارز في عمق الساحة المركزية لبوراي ودقَّات ناقوسها الصّادرة بانتظام

من على صومعتها المرتفعة قليلا عن أسوار الكنيسة في زرقة السماء.

لم تترك وقع الأجراس أثرا في نفسي يوما ولم يجد تبتل الأخوات وتودُّد الآباء البيض مدخلا إلى قلبي في ظل استمرار والدي في تعليمي ديني ولغتي وثقافتي. ...لا تقلقي منِّي صديقتي كلودين فهذا مجرد إحساس وليس انتقاصا. كنت ألاحظ أبي منذ طفولتي وهو مواظب على صلاته وقراءته للقرآن الكريم. يتصدّق، يصوم...يَذكُرُ والدَيه وأصدقائه وكل عائلته بخير ويسرد علينا كيف كانت حياته معهم. كنتُ أكفكف عبراته حين يفقد القدرة على السيطرة على جريانها وهو يصف بكل شوق وحرقة لا توصف الأرض التي نشأ في أحضانها ودفء العائلة التي تربى فيها والقبيلة التي حمل أمانة حماية هويتها. لكن سرعان ما كان يتدارك لحظة ضعفه ويمسح دموعه بطرف ثوبه ويضفي على مجلسه

العائلي مرح الحديث عن قصصه مع أقرانه ومع معلمي القرآن في قريته.

احتفالات خمسينيات استعمار فرنسا لكاليدونيا الجديدة

في الثامنة عشرة من عمري, رافقتُ أبي لنشهد معًا احتفالات الذكرى الخمسين "لإعمار" كاليدونيا الجديدة، تحت أمرٍ إجباريٍّ لكل المنفيين المفرج عنهم بضمان استثمار الأرض وعائلاتهم. كان ذلك في 24 سبتمبر 1903.

مخافة أن ندخل في سياق التمرد على الإدارة الاستعمارية وعدم الرضا بـ"حضارة فرنسا"، رأينا من الضروري أن نحضر الحفل. كانت فرصة لي أن أتعرف أكثر على مظاهر الثقافة العربية والفروسية.

رغم بُعد المسافة بيننا وبين ميدان الركض، إلا أني أُعجبتُ بعروض الخيول...ألبسة عربية وجميلة للفرسان وطلقات بنادقهم المدوية في سماء نوميا بعد ركضٍ مصطفٍ للخيالة، أثارت في نفسي عزة مفقودة وسط صخب الحضور وقرع حوافر الخيل وطبول الفرق الموسيقية وأهازيج الفتيات.

"من ذلك الفارس المميّز في لباسه العربي وحركاته الرّشيقة يا أبي؟ أظنّه هو نفس الشخص الذي كان يوقد كلّ هذه الفوانيس منذ غروب الشمس! ملامح وجهه لا تظهر سوى كِبر سنه. أليس كذلك أبي؟"

"فعلا بنيّتي، كثرة الجماهير منعتنا من الاقتراب من ساحة العرض. إنه الشيخ بومزراق."

"الشيخ بومزراق الذي طالما حدثتني عنه. إنَّه هو الذي سرد عليك كل وقائع ثورة المقراني والحدّاد...أليس كذلك؟؟"

"بالفعل. لكنَّه لا زال يحتفظ بالرشاقة والخفة!"

"لكن ما سبب كل هذا القرب من الإدارة الاستعمارية. لم يسبق لك، أبي، أن أعطيتني تفسيرا لهذا !! لا زلتُ أحتفظُ منكَ فقط أنه كان فارسا شجاعا ومقداما وقاد المقاومة الشعبية بعد أخيه الباشاغا محمد المقراني. يبدو أن الأمر قد تغيَّر تماما !! إن فرقة الشرطة البلدية تؤدي له التحية وترافق بالعزف مرور أحصنة فرقته وتضبط إيقاع ركضها الموسيقى الرسمية على قرع حوافر خيله!"

يبدو أن الأمر أصبح يأخذ منعرجا جادا مع أسئلة ابنته نوميا! نظر محمد بن عيسى مليا في عيني ابنته قائلا لها: الآن، دعينا بنيتي نرى عرض الخيّالة العربية في الساحة المركزية ونحضُر بعيدا قرب تلكم التلّة مجريات الفانتازيا وحين عودتنا إلى البيت سأجيبك عن كل أسئلتك.

من جملة الأحاديث والحوارات مع أبيها، ارتسمت في مخيلة نوميا بمرور الأيام بطولات أبيها وعائلتها وأهل بلدتها في الذود عن حمى بلادها وردِّ عدوان الاحتلال الفرنسي وتشكَّل في نفسيتها كره للظلم والاحتقار

وشفقة غير مسبوقة نحو المنفيين الجزائريين وحتى الأوروبيين.

تحتضن الفتاة نوميا بين ثنايا قلبها ظُلمين اثنين: ظلمٌ لأبيها المهَجَّر من الجزائر وظلمٌ في حق أمها المرَحَّلة هي الأخرى من فرنسا وحزَّ في نفسها كل مشاهد الجور والقسوة التي تتقاسمها مع والديها وسكنَت في قلبها كآبة مظلمة وحرقةُ تشرُّدِ شرفاء الأوطان في المنافي البعيدة.

إرهاصات مقاومة المقراني

أدركَتْ نوميا أنه حينما وطئت أقدام المحتل الفرنسي أرض الجزائر وتوسع نفوذها على حساب حياة وأشلاء وأعراض كل من لصقت به تهم رفض "الحضارة الأوروبية"، انتفض الشعب الجزائري وقرَّر تقرير مصيره بحد السيف رغم قلة الإمكانات الحربية وضعفها أمام آخِر ما أنتجه العقل البشري من أجل إبادة البشر.

"... لم تكن كافية يا بُنيَّتي نوميا تلك النفسية المندفعة تحت أثر التربية الروحية في الزوايا، لكن رغم وجودها فلا أحد ينكر فضلها في تعطيل وتيرة مشروع الاستيطان وفي رد العدوان الهمجي في بدايته. أصلُ المحنة التي أتواجد فيها أنا ورفقائي الجزائريين في هذه الجزيرة البعيدة وتتواجدين فيها أنتِ كذلك، تُختَزَلُ في قيام ثورة أولاد سيدي الشيخ والمقراني وفرجيوة والصبايحية وبعدها سمعنا عن ثورة الشيخ بوعمامة التي رُحِّلنا قبل اندلاعها بأربع عشرة سنة.

سمعنا فيما بعد أن الشيخ بوعمامة كان قائدا وفارسا وشيخ زاوية. أرهقه ظلم الاستعمار وتوالت عليه خيبات الأمل من قبل بعض القبائل المجاورة لناحيته في الجنوب الغربي للجزائر بعدما اصطف بعض أفرادها في جبهة العدو لقتاله. أمَّا في الشرق وبلاد القبائل فنفس المصير لقيه الزعماء والمريدون قبل عشر سنوات...".

قبل قيام ثورة الباشاغا المقراني، كانت شكوك فرنسا قائمة لاحتمال قيامه بمثل صنيع الأمير عبد القادر وأولاد سيدي الشيخ رغم سلطته المعترف له بها من فرنسا على الإقليم. كان المندَسُّون من ضعاف الجزائريين في صفوف المقراني يبلغون الإدارة الاستعمارية عن كل حركة يقوم بها. وُضِع تحت الرّقابة وقُزِّم وضعه الاجتماعي أمام مناوئيه رغم رفعته وقُلِّصت صلاحيته في الحكم مخافةَ أن تقوى سُلطته فيَصعُبَ احتواؤها. ولعل من أسباب تطور ثورة المقراني واتساع رقعتها بعد سقوط نابليون الثالث هو صدور مرسوم أدولف اسحاق "كريميو"Adolphe Isaac Crémieux في 24 أكتوبر 1870 في عهد الجمهورية الثالثة الذي أعطى لليهود المقيمين في الجزائر حق التجنس بالجنسية الفرنسية.

عمَّت الجزائر حركة فوضى عارمة كرد فعل على صدور هذا القانون. يقول الباشاغا المقراني:"...إنَّني مستعد أن

أضع رقبتي تحت السيف ليقطع رأسي ولا أقبل أن أخضع لحكومة من التُّجَّار الإسرائيليين."

لقد ساهم هذا القانون كذلك في تحطيم البنية الاجتماعية لأملاك العروش وربطها بالنظام المدني الاستعماري الجديد وحرمان أصحابها منها وتوزيعها على المعمرين وأجَّج في نفوس السُّكَّان نار الكراهية ضد المستعمر الفرنسي. سُلبت الأراضي الخصبة من أصحابها ثم أُعيد بيعها لهم بخمسة أضعاف بقرار من الحاكم العام الأميرال "دي قيدون" Louis Henri de Gueydon.

اتَّسعت رقعةُ وحِدَّةُ الجفاف الذي غوَّر الماء وغيّب السقاء وهشَّم الزرع وجفَّف الضرع وخلَّف500 ألف قتيل في سنة 1868 وكذا دمار الحقول والأشجار والمحاصيل الذي خلَّفته أسراب الجراد التي أتت على الأخضر واليابس وسمِّي ذلك العام ب"عام الشر". لم يكن من سبيل لإنقاذ السكان من آثار الجفاف

والقحط وأسراب الجراد إلا تَودُّد المارشال ماكماهون إلى الباشاغا محمد المقراني طامعا في تمويل الفلاّحين بالقمح والشّعير.

فَرِغت مخازن المُقراني الذي كان يموِّنها من مزارعه ولمَّا عجز عن مواصلة التمويل، طلب قروضا ربويّة من البنوك بإيعاز من مستشارٍ يهوديٍّ لماكمهون وبضمان من هذا الأخير، لكن تعذّر عليه ردّها واضطرّ لرهن ممتلكاته. تغيّرت سياسة الحكومة ووُسِّع من دائرة المعمِّرين وأُعطيت الجنسية الفرنسية لليهود المقيمين في الجزائر وأصبحت اتفاقية ماكماهون Maréchal Mac-Mahon مع الباشاغا محمد المقراني وضماناتها في "خبر كان" بعد رحيله.

نُقِض الاتفاق ونَفَض المقراني يديه من عهود فرنسا ولم يعد يرى من حل إلى الثورة. لجأت فرنسا إلى التخريب والابتزاز ونزع الملكيات قهرا من السكان وخُرِّبت قنوات تصريف مياه السقي. انتُزِع النخيل من جذوره انتزاعا

وقُطِّعت جذوعه تقطيعا لإنجاز مشاريع استثمارية للمعمرين.

بعدها...دخل المجتمع الجزائري في دوامة من الفقر والعالة والبؤس وأهلكه الطاعون ودمَّر أحلامه القهر وبدأ التنصير يسعى لإيجاد سبل التوغل في المجتمع بتأطير من الكاردينال "لافيجري" Le Cardinal Lavigerie صاحب المقولة الشهيرة :" لقد وجب إعادة بناء الشعب وتوقيف حياته القائمة على القرآن الذي ارتبط به منذ زمن بعيد. على فرنسا إذن أن تسمح بتقديم الإنجيل أو تعمل على طرد هذا الشعب إلى الصحراء."

اندلاع ثورة الباشاغا المقراني والشيخ الحدّاد

"لم يعد لنا أن نصبر على هذا الظلم بعد اليوم...فلنستجمع قوَّانا ولنُعِدْ العُدَّة لمواجهة الاستعمار..." كان الباشاغا محمد المقراني يكرِّر هذه العبارات في الكثير من لقاءاته بزعماء القبائل والعشائر في الجزائر.

ضرب الباشاغا المقراني بعرض الحائط كل تشريفات فرنسا له وبكل منازل الإدارة العثمانية التي استلهم منها سلطته وآثر متاعب الحرب ضد الفرنسيس على رغد العيش وسمُوّ المرتبة في كنف الاحتلال. أَعلَن الجهادَ في الأمصار وحرَّك القبائل وجنَّد المحاربين من سكان القرى ومريدي الزوايا. كان المقراني قائدا عسكريا، أعلن الباشاغا النّفير العام في مجانة يوم 7 مارس 1871 وأعاد تقديم استقالته من منصب الباشاغوية وأرجع راتبه

الشهري إلى الحاكم الفرنسي. وكتَبَ رسالة بتاريـــخ 15 مارس 1871 وجّهها إلى القائد العام وإلى الجنرال أوجرون Le Général Augeron ، يقول في آخرها: " ..إنّني أستعدُّ اليوم لقتالكم، فلنحمل السِّلاح وليتأهَّب كلُّ واحدٍ منّا للقتال..."

دقَّت طبول الحرب وأَعلنت الزاوية الرحمانية، هي كذلك، الجهاد ضد الفرنسيس بعد صلاة الجمعة في قرية صدوق في 8 أفريل 1871.

تعالت أصوات الحاضرين مكبِّرين ومهلِّلين بخبر الإعلان واختلفت آراء الجزائريين في دعوة المقراني بين مؤيدٍ – معتبرٍ إيّاه قائدا عسكريا – فأعلن له البيعة والولاء ومعارضٍ، – أَلصق به تُهم الجنون والتّطرُّف – فجعل من إعلانه قرينةَ انضمامِ أهل الجبن للاسترزاق من مخازن فرنسا. اتّخذت فرنسا من المنشقين عن المقراني والحدَّاد دروعا بشرية لجيوشها في صفوف المواجهة الأولى وجُنِّدوا في فيالقها.

لا زالت الذاكرة الشعبية تحتفظ إلى عهد قريب بأهازيج النسوة في الأعراس والمناسبات المشِيدةِ بالمقراني والحدَّاد وبومزراق والمستنكرة لأدوار الخيانة التي قام بها الجبناء.

كان الباشاغا المقراني قد أرسل وفدا إلى الشيخ الحدَّاد زعيم الزاوية الرحمانية في بلاد القبائل يدعوه فيها إلى الانضمام إلى الثورة والتمرد على فرنسا. استمع بومزراق لرد الشيخ الحدَّاد وأسرَّ في نفسه استفزاز سي عزيز له ورده كتابيا على الشيخ المقراني بقوله "...ثُم من تكون أنتَ حتّى تُعلن وحدك الحرب ضد فرنسا دون إجماع؟ هل لديك الأسلحة والأموال والقدرة اللازمة لذلك؟" أجاب المقراني :" إنك سترى قريبا جنود السلطان العثماني وَهُم يقتحمون الحدود التونسية بقيادة محي الدين الابن الأكبر للأمير عبد القادر.

....لقد تلقيتُ رسالة السلطان بواسطة مبعوثه علي باشا المقيم في طرابلس وسأقود الانتفاضة من داخل الجزائر رفقة أصدقائي المخلصين الذين أمدوني بكامل

الدعم...". يبدو أنه لم يكن التصريح بوجود الجيش العثماني على الحدود التونسية إلا على سبيل الدعاية الحربية التي ترفع همة الانخراط في الجيش في مواجهة النبرة الحادة التي لقيها من الحدّاد والتي كان فيها الكثير من التأنيب ودعوة لتأليب أفئدة مريدي الزاوية الرحمانية ضد حالة الاستسلام للأمر الواقع الذي بات يهدد مصير الجزائريين.

ابن الأمير يلتحق بالمقاومة

شَغُفَ محي الدّين ابن الأمير عبد القادر عندما كان مقيما مع والده في منفاه بدمشق بالمشاركة في الثّورة على الحدود الشرقية للجزائر. "لم يعد يعنيك منصب قاضي "إزمير" الذي عينك فيه السلطان عبد العزيز، أيها الأمير!". يقول له الملازم بن عبد الله وهو يحاوره هل أهبة اختراق الحدود. "أجل أيها الملازم...لن يرتاح لي بال حتى أرى فرنسا تغادر خاسئة الجزائر. سأفعل

كل ما بوسعي لأُوَحِّد الجهود وأخوض الحرب مجددا ضد الاحتلال". "بالمناسبة لقد اجتمع كل من القائد بن ناصر بن شهرة وإبراهيم بن عبد الله مقدم الزاوية القادرية ومصطفى بن عزوز شيخ الزاوية الرحمانية وينتظرون التحاقك بهم..."يقول الملازم بن عبد الله.

خَلُصت المشاورات واللقاءات السرية إلى إعداد العُدَّة وتوجيه رسائل الدعوة إلى الجهاد ضد المستعمر، وكان ممن وصلهم الكتاب الشيخ بومزراق بعد خلافته لأخيه الباشاغا محمد المقراني.

"...سيدي الأمير عبد القادر، إن ابنك الأمير محي الدين على أهبة الدخول إلى الجزائر عبر حدودها التونسية، إنه يريد حمل السلاح ضدنا وينضم إلى مجموعات الإجرام التي لا زالت تثير الرعب في الجزائر وتهدد استقرار فرنسا...! هذا ما صرح به قنصل فرنسا بدمشق في حضرة الأمير عبد القادر."...ليس لي أدنى علم بما تقول، آخر عهد لي بمحي الدِّين كان عندما

ودَّعني ليستقر في إزمير...سأتحرّى الأمرَ بمعرفتي، سعادة القنصل..." سوَّقت فرنسا بهتانا فكرةَ معاتبة الأمير لابنه وإرساله رسالة تبرئة من أعماله: "...إن عدُوَّ الله...المجنون محي الدين يتواجد حاليا بين الحدود ما بين الجزائر وتونس، فليعلم الناس ويتأكدوا من استنكاري صنيعه هذا..." وحمَّلت مضمون الرسالة المزعومة على نزول الأمير إلى رغبة فرنسا وأُوِّلت على أنّ الأمير عبد القادر لا زال يحتفظ في ذاكرته بخذلان الخليفة الحاج أحمد والد الباشاغا محمد المقراني له بعد معاهدة "التَّافنة" وولائه للمارشال "فالي" Le Maréchal Valée في مواجهة الحاج محمد بن عبد السلام المقراني خليفة الأمير على إقليم مجانة. دَأَبت الرواية الفرنسية المصطنعة أن تضع صنيع الأمير عبد القادر مع ابنه محي الدين في خانة الانتقام من عائلة المقراني حينما أراد أن يضع كل قبائل الجهة الشرقية وبلاد القبائل تحت سيطرته وفشله في إخضاع الخليفة الحاج أحمد المقراني لسلطانه الذي آثر

إعطاء ولائه لأحمد باي منافس الأمير عبد القادر على إقليم مجانة.

خفق محي الدين في التوغل أمام قوّات فرنسا فرجع إلى تونس ثمّ استقرَّ في صيدا. وطالعت الصحف الفرنسية آنذاك الرأي العام أن الأمير محي الدين قد استجاب لأبيه الأمير عبد القادر قد عفا عن ابنه بعد العديد من الوساطات وبعث برسالة في 15 نوفمبر 1871 إلى الحاكم العام بالجزائر، يؤكّد الأمير فيها رجوع ابنه إلى دمشق. كذبت فرنسا على الأمير في معاتبته لابنه كما كذبت أنه صديقها. وما كان له أن يكون كذلك!

اندلعت الثورة في ذراع الميزان وتيزي وزو والأربعاء نايت إيراثن، برج منايل، الثنية، بودواو بقيادة القايد علي أوقاسي ضد العقيد "فورشو" Colonel Fourchault ووصلت إلى بوسعادة.

هذا العقيد الذي انتقم من المقاومة بإعدام ثمانية عشر سجينا من سجن بودواو في الساحة العمومية. تسلم

الجنرال "لالمان" Général Lallemand القيادة بعد هزائم الجيش الفرنسي. أُحرِقت الأكواخُ وانتهكت حرمة البيوت. وقف الجنرال سيريز على مشارف المدينة ينظر يمينا ويسارا. "...لقد فرَّ بومزراق سيدي الجنرال، ولم يبقى إلا بن الطيب صديقه الذي كان يمده بالعون والزاد والسلاح. إنه متخفيا في بيته وراء نسوته وبناته..." يقول الآغا بوزيد وهو في حالة هلعٍ من الجنرال.

"...لا أغادر مكاني هذا حتى أرى كل عائلة بن الطيب أمامي وإلاَّ سترى مني يا آغا بوزيد موقفا لم تكن تحسب له أي حساب...هيَّا انصرف...انصرف أيها اللعين !! فرَّ الآغا بوزيد من غضب الجنرال وتوجه تلقاء منزل بن الطيب. ضرب باب المنزل بقدمه فوجد بن الطيب منتصبا وبيده بندقية. أطلق رصاصة أصابت أحد "القُوم" الذين يرافقون الآغا لكن اندفاع باقي أفراد القوم بقوة على بن الطيب حال دون إتمام التصويب في

صدر الآغا بوزيد. سيق بن الطيب مكتوف اليدين هو وزوجته وأبناؤه وبناته واصطفوا وسط ساحة القرية. "هل هذا هو بن الطيب و عائلته؟" أجل سيدي الجنرال. "...لا أريد أن أسمع الكثير...فليُقذفوا جميعا بالنار فورا...فورا....هل تسمع !!.هيا احضروا كل السكان ليشهدوا جزاء من تسوِّل له نفسه الوقوف مع بومزراق...".

اصطفّ الجميع رجالا ونساء شيوخا وشبابا حول الساحة. وأعطى الجنرال الإشارة بيده للرَّمي. أُعدمت كل عائلة بن الطيب أمام أعين الناس ثمَّ أَحرق رتل الجنرال سيريز المنازل والأكواخ وألهب النيران في المحاصيل وأفرغ المطامير وقدَّم قمح وشعير السكان غذاءً لدوابه وهدم منزل بومزراق الذي كان يأوي المجاهدين بالمدفعية وطرد باقي "الأهالي" خارج المدينة.

لقاء نوميا ببومزراق

كانت نوميا تستمع بإمعان وشغف إلى حديث أبيها وهو يذكر الشيخ الحدَّاد وزاويته الرّحمانية بقرية صدوق التي حفظ فيها الشيخ الحدّاد القرآنَ وتعلّم الفقه والمتون والأصول وفي وصف الباشاغا محمد المقراني وأبيه وأخيه الشيخ بومزراق والتّباهي بشرف دعمه للمقاومة الشعبية التي عمت الجزائر وبصداقته لبومزراق. كانت ملازمة بن عيسى في المنفى للمُرحَّلين في قضية محكمة قسنطينة أثر بالغ في إلمامه بظروف المقاومة الشعبية في الشرق وبلاد القبائل ومجريات المعارك التي وقعت في هذه الناحية وفي معرفته بمعادن كل رجالاتها واتَّخذ من صداقتهم درعا يحميه من وحشة الغربة ونبراسا فتح أمام عينيه أمل العودة إلى الجزائر.

استوقفت نوميا حادثة استشهاد الباشاغا محمد المقراني في الخامس من ماي 1871 بوادي سوفلات قرب مدينة

البويرة حينما باغته "الزواف" بوابل من طلقات البنادق هو وبعض من رفقائه وهُم يؤدون صلاة الظهر.

قال محمد بن عيسى لابنته نوميا: "الزواف !!...مرتزقة من بني جلدتنا جنَّدهم العدو في صفوفه...كانوا على دراية كبيرة بهضاب المنطقة وجبالها ووِهادها وبسكان القرى وعلى دراية تامة بمُستقرِّهم ومستودعهم...لا تغيب عنهم شاردة ولا واردة...لكنهم فضلوا الخيانة."

أصغت نوميا بإمعان إلى بن عيسى وأدركت أن هؤلاء الزواف هم فرقة من السكان الجزائريين جندتهم فرنسا رفقة جنسيات أخرى في الصفوف الأولى لمحاربة المقاومات الشعبية في بلاد قبائل و"التيطري" ومنعِ انضمام العشائر والقبائل إليها.

كانوا يقطعون السبيل ويشكلون دروعا بشرية لحماية الجيش الفرنسي من نيران مقاومة الباشاغا المقراني في الشرق والوسط...ماذا نفعل؟ إنَّ نجوم السماء لا ترفع وضيعا في الأرض !!

موعد الزيارة التي وعد بها محمد بن عيسى نوميا حان...ارتَدت جميل فساتينها واستعدَّت للذهاب والأمل يحذوها أن تتعرَّف أكثر على هذه الشخصية الغامضة والمثيرة لكثير من الجدل. توجها تلقاءَ مزرعةِ بومزراق التي بها بيته.

على مشارف المزرعة، لمحت شيخا وقورا عليه سمرة عربية قد اتخذ من ظل الشجر فراشا. استقام من اتكائه وهو يداعب حبات سبحته التي لا تفارقه، ثم رد السلام على الزائرين من بعيد. أمعن النظر في ملامح وجه الضيف، فأدرك صديقه بن عيسى.

– "أخي بن عيسى...مرحبا بك. لم نتزاور منذ أمد بعيد...تعانقا مليًّا...و توجه بالسلام على نوميا... أظنها ابنتك يا شيخ بن عيسى!!...مرحبا بكما"

– "نعم إنها ابنتي نوميا. ألحَّت عليَّ أن أصحبها هذه المرة لزيارتك يا شيخ بومزراق !!"

– "ألف مرحبا...بارك الله فيها...لقد كبُرت...كان آخر عهدٍ لي برؤيتها منذ سنتين..." ، "كان ذلك في عيد الفطر إن كانت الذاكرة جيِّدة". "فعلا...هو كذلك أخي بومزراق !!..."

تجاذب محمد بن عيسى وبومزراق المقراني أطراف الحديث، وأكثر ما كان الحديث عليه هو طبيعة الجزائر والتقاليد والعائلة ومصير المقاومة التي لم يعد يسمع عنها شيء..."

عادت حادثة استشهاد الباشاغا المقراني للواجهة.." نعم يا شيخ بن عيسى، كان أكثر ما ألحق بنا الضرر هو الخيانة من بني جلدتنا...تلك الحادثة حبَك خيوطها آغا البويرة محمد بوزيد بن أحمد بإيعاز من الجنرال "سيريز"...لقد كَنَّ لنا عداءً كبيرا لم يكن له مبرر إلاَّ الحصول على مزايا زائلة من العدو.."

سَرَت في جسد نوميا قشعريرة وتغيرت ملامحها متعجبة من إقدام بعض من المجتمع الجزائري في قتل دعاة التحرر

من ربقة الاستعمار الفرنسي. وأضافت إلى معلوماتها أن الخيانة والوشاية لم تزل تضعف المقاومة وتخفف من وطأتها على العدو.

لم يعد يخفَى على أحدٍ بشرى وفاة الباشاغا المقراني التي تناقلها بابتهاج الآغا بوزيد لإعلام الجنرال "سيريز " Général Cerez. كان حدثا مهما بالنسبة للآغا، لم يستطع من فرط الفرح أن يضمر ما يشعر به. أطلق العنان لفرسه يجوب ساحات وطرق القرى والمداشر يعلن الوفاة ويستفزُّ المارّة ويتوعد كل من يسلك سبيله بسيفه.

كانت الغبطة كبيرة كذلك عند القايد بن منصور. لقد أسرع مبرقا الخبرية إلى المقدم "تريملي" بكتاب يقول فيه :"لقد وصلني أنه كان لديك شكوكا. فلتطمئن سيدي...فإن المقراني قد مات بالفعل يوم الخامس من ماي..."

حشرج صوت بومزراق وهو يستعيد ذاكرة استشهاد أخيه الباشاغا محمد المقراني. حُمِل جثمانه المسجّى في ثيابه الملطخ بالدماء ووضعه فارس أمامه على ظهر حصانه وطار به يسابق الريح هو ورفاقه. كان الفرار بجثمانه خوفا من وقوعه في أيادي الزواف. سعِدَ الفارّون بوصول جثمان الباشاغا ودُفن في قلعة بني عباس بعد أن صلّى عليه خفية بعض أهل القلعة. بقدرِ ما حزِن على وفاته رفقاء دربه بقدر ما سعِدوا بالفرار بجثته سالمة.

يستعيد الشيخ بومزراق أنفاسه ليُتِمَّ حديثَه "...الدفن في أرض الجزائر أكرمُ وأرحمُ من أن يقع بين يدي العدو ثمَّ يُطلب من المرتزقة الحاملين للكراهية للباشاغا أن يفصلوا رأسه ..." كان قطع رؤوس زعماء وقادة المقاومة صنيعُ شنيعُ متداولا عند الفرنسيس. كانوا يرهبون به السكان ويجبرونهم على التصريح بأي خبر

يفيد بإلقاء القبض على المشبوهين ويمنعون التحاقهم بالمقاومة.

استعاد بومزراق في حضرة نوميا ذاكرته التي لا زال لم ينل منها الفتور والنسيان ما كُتبَ على النصب التذكاري الذي حرص على تشييده المقدم "تريملي" سنة 1874 في موضع استشهاد الشيخ المقراني. "...هنا في كديةِ المصدور وقع قتيلا برصاص الفصيلة الرابعة من قوات الزّواف، يوم 5 ماي 1871، باشاغا مجانة، الحاج محمد بن الخليفة الحاج أحمد المقراني، قائد الانتفاضة...قائد التشكيلة، الجنرال سيريز. قائد منطقة "أومال" . إمضاء : المقدم تريملي."

استشهد الباشاغا محمد المقراني واستمرّت المقاومة واتّسعت رقعتها وقَويت شوكتها بقيادة الشيخ بومزراق وأبناء الشيخ الحدّاد زعيم الطّريقة الرّحمانيّة سي امحمد وسي عزيز.

بقي يتردد في الآذان ضبح العاديات المغيرات على معاقل العدو والخونة ورائحة البارود تثير همَّة الفرسان في المقاومة ببسالة الشجعان. حقّقت المقاومة انتصارات كبيرة على القُوّات الفرنسية في أرض الشرق وبلاد القبائل منذ إعلانها الجهاد ضد المحتل في 13 جويلية 1871 ، مثلما استطاعت أن تزعزع استقرارها في كل أرجاء الجزائر.

ليلة القبض على بومزراق

لم يشف غليل الآغا بوزيد دم الباشاغا محمد المقراني فصار يتعقَّب آثار بومزراق شبرا بشبر وذراعا بذراع. لم يعد يهنأ له بالٌ حتى يستأصل شأفة كل من تسوّل له نفسه مواجهة فرنسا. كتب إلى ترملي :" ...إن بومزراق سيلتحق بمنطقة وادي الشعير ويقول إنه سوف يذهب إلى مجانة لجلب 600 فارس حتى ينتقم من

(رتل) البويرة ولا زال يحرِّض الأهالي على الصمود ويرفض الاستسلام والرضوخ..." وأضاف بوزيد :"...وحتَّى أولئك الذين لم يرو منَّا إلاَّ الخير انضموا إلى صفوف العدو...". كان بارزا إذن أن يخضع الجميع لتأديب الآغا بوزيد تحت أنظار ضباط فرنسا.

أسرع بومزراق قائد "ونوغة" في نقل عائلة أخيه الباشاغا محمد المقراني إلى تونس مخافة أن تدركها التصفية الجسدية الجماعية لعناصر الآغا بوزيد أو الاعتقال من قبل جنرالات فرنسا.

صدمه خبر اعتقال الشيخ الحدّاد وأبنائه (سي عزيز 30 جوان 1871 وسي امحمد 02 جويلية 1871) وتسليمهم لحاكم بجاية ثم إلى الجنرال "لالمان" ، غير أنّ ذلك لم يُثن من عزيمته في مواصلة المقاومة ضد الفرنسيس وحقّق انتصارات في مجانة والحضنة وسطيف وقلعة بني عبّاس.

باعتقال آل حدّاد سرى الضَّعفُ في نفوس المقاومة وتشتَّت قواها وانتصرت فيالق الزواف وسرايا الجيش الفرنسي في حرب غير متكافئة عدةً وعتادًا وتقلَّد الخونة شارات القيادة على القبائل واندسَّ الآخرون في القرى والمداشر وسط السكان يرصدون آخر السكنات والتحركات.

في "قبر السلوقي" باغت رتل الجنرال "سوسيني" Général Susini السريَّة التي كانت تُؤَمِّن تنقل شيوخ ونساء وأطفال المقراني. جرت معركة ضارية خسرت فيها سرية المقراني المؤنَ والممتلكات المحمولة على الدواب ولكنها استطاعت أن توفر الحماية لفرار العائلة إلى تونس وتحفظ شرفها رغم الكمين الذي نصبه الجيش الفرنسي في عملية تعقب بوشوشة وبن شهرة على مشارف حاسي "تمزقيدة".

أطلق بومزراق رُفقة أحد معاونيه عنان الخيل اتجاه الفيافي وصولا إلى صحراء ورقلة عندما اكتشف أمرهما

فرسان "القُوم" الموالين للرائد "رو" Commandant Roux.

قطعا مسافات كبيرة يضمنان فيها وصول جيش بوشوشة وبن شهرة نحو الحدود التونسية. تاها في الصحراء القاحلة لمدة ستة أيام بدون زاد ولا ماء وبقي القائد بن شهرة ينتظر جديد بومزراق للالتحاق به في الحدود ويتتبع أخبار الصحراء...

لم يُعثر على أثر لهما ولم يأتِ أي خبر من بومزراق يُطمئن على سلامته. بلَغت القلوب الحناجر...الجيش الفرنسي يتدعَّم بقوات إضافية...إنه يبحث الآن عن آخر من يحمل البنادق والعداء ضد فرنسا...إنها فرصة فرنسا المثالية لإسكات "التمرد" إلى الأبد.

في غمرة هذا الاضطراب والترقب، يستمر بن شهرة وبوشوشة في مقاومتهما بعد وصول عائلة المقراني إلى تونس. بعد وشاية جريئة، أُلقي القبض على الشيخ بوشوشة وبعض أفراد مقاومته جنوب عين صالح. أُخذ

إلى سجن قسنطينة ومكث فيه عدَّة أشهر...حُكِم عليه بالإعدام ونُفِّذ رميا بالرصاص في ساحة السجن بتاريخ 29 جوان 1875.

أهلك بومزراق البحث وازداد عليه ضغط السرعة في إيجاد مخرج لمأزق حصار مقاومة بن شهرة وبن شوشة. اختفى أثر بومزراق ورفيقه واستمرا يطويان القفار ويعبران الوهاد حتّى عثَر عليهما "القُوم" في حالة هلاك من كثرة الجوع والعطش قرب واحة الرويسات بورقلة.

أجهدهما السّير ونال منهما حرُّ الصحراء حتّى خارت قوَّاهما وجفّت عروقهما ودخلا في شبه غيبوبة. وقفت غرابيب كثيرة قرب رأسيهما تنتظر فناءهما ولعلها هي نفسها تِلكُم الغِربان التي شاركت في مأدبة محرقة الرّابع من ديسمبر 1852 في الأغواط بقيادة "بيليسيي" Pélissier.

خلَّد "أوجان فرومونتان" الضابط الفرنسي هذه المحرقة فوصف درجة الدمار الذي تركه الجيش الفرنسي في

المدينة قائلا: "...مدينة مَيِّتة مِيتةً قذرة...مدينة الأغواط...معظم الأبواب كانت مغلقة وما تزال على بعضها آثار طلقات الرّصاص وطعنات الحِراب شاهدةٌ على ذلك...وأنا الآن أقيم في بيت الضيافة...لاحظتُ بناية قصيرة الارتفاع بها منافذ أفقية ويعلوها صليب حديدي رفيع، علِمتُ أنها مسجد قديم حُوِّل إلى كنيسة. في الصبيحة تركت نفسي تنساق نحو قبة سيدي الحاج بن عيسى، حيث جرت معركة الثالث من ديسمبر...وهنا تعرفت على آثار المعركة والأماكن التي عاشت مدة الحصار...هُدِم جزء من قبّة مقام الولي الصالح...كنَّا نسير على برك من دماء، كانت هناك المئات من الجثث مجموعة ومكدّسة في الآبار...مررتُ بالقرب من إحداها فعلمت أنها تلقَّت 256 جثة بصرف النظر عن جِيف الدّواب...

عندما انتهينا من ردم كل الموتى، أصبحت المدينة صامتة كأنّها امتداد للصحراء. كلُّ الناجين قد لاذوا

بالفرار وحتّى الكلاب هجرت المدينة مرة واحدة. ومنذ المساء الأول ظهرت فجأة سحب من الغربان والعقبان وقد ظلّت تحلق في سماء المدينة مدة شهر بأكمله وكأنها فوق ركام عفن كبير، وكانت أعدادها من الكثافة ما أجبرنا على وجوب تنظيم حملات صيد لإبعادها...".

أُلقي القبض على بومزراق يوم 20 جانفي 1872، دُقّت طبول النصر مرحبة على أبواب السجن بقدوم الشيخ بومزراق مكبلا بسلاسل من حديد ومنطويا على ظهر حصان وفاقدا للوعي هو وصاحبه. استعاد بومزراق بعض عافيته وأفاق من موت محقق.

قال الشيخ بومزراق:"...أسأل الأمان حضرة الجنرال !!"

"ليس لديَّ مانع... في منحك الأمان، وهذا ما معناه أني أتنازل عن حقي في رميك بالرصاص على الفور. لكنك ستمثل أمام العدالة وهي التي تعاقبك على

جرائمك، هذا كل ما بوسعي فعله لفائدتك." يجيب الجنرال "ديلاكروا" . Général Delacroix

أصبح لنوميا فكرة دقيقة عن الأوضاع الأمنية والاجتماعية والاقتصادية في الجزائر لما أُلهمت من نباهة وذكاء واستطاعت أن تتصور هول الإبادة الجماعية التي لحقت بالسكان وتتفاعل معها بتركيبتها النفسية المولعة بأرض الأجداد وهي لم تتجاوز بعد العشرين.

المحاكمة

خمدت المقاومة الشعبية في الشرق الجزائري والوسط باستشهاد بعض القادة واستسلام واعتقال البعض الآخر. بدأت جلسات محاكمة أتباع الباشاغا محمد المقراني في محكمة الجنايات بقسنطينة يوم 21 سبتمبر 1873 وكان عدد المتهمين 213 واستمرَّت ستة أشهر. أدينوا بتهم إثارة الحرب المدنية وزعزعة النظام العام والقتل العمدي والحرق وتغيَّرت بذلك معطيات المحاكمة

من محاكمة ذات أبعادٍ سياسية إلى محاكمة مجرمين في إطار القانون العام.

يقول المحامي "لاسات" في مرافعته الأولية يوم 10 مارس 1873 :"إن الانتفاضة ليست سلسلة من جرائم القانون العام وليست سلسلة من أعمال عشوائية. إنها حدثٌ سياسي كبير، له أسباب مرتبطة بعضها ببعض. إنها الأحداث التي وددنا أن نجد لها تحقيقا برلمانيا.

اليوم...يبدو أن كل الوقائع السياسية للقضية قد تلاشت. كيف يمكن لنا تفسيرها عندما أُفرغت من طبيعتها السياسية؟ كيف لنا أن نصنف مسؤوليات المتهمين إذا لم نتعرف على الدواعي التي وجهت إرادتهم؟ من لا يعرف طاعة الأهالي لشيوخهم؟.

محامي آخر الأستاذ "جيل فابر" يصف الاتهامات بالعشوائية ويضيف قائلا: " ليس من حق العدالة أن تختار ما بين المُدانين وإلاّ فلم تعد هناك عدالة..."

صدرت الأحكام كالصاعقة على المتهمين في جلسات ومحاكمات متباينة ومختلفة:

الشيخ محمد أمزيان الحدَّاد (84 سنة، متزوج): 5 سنوات سجن

سي امحمد الحداد (40 سنة، متزوج) :عشر سنوات

سي عزيز الحدّاد (32 سنة، متزوج):عشر سنوات

أحمد بومزراق بن الحاج أحمد المقراني (35 سنة، متزوج) :إعدام

مختلف الأحكام لباقي المتهمين تتراوح بين السجن والإعدام. كما حُكم فيها غيابيا بالإعدام في حق خمسة عشر فردا من عائلة المقراني. وصُودِرت كل ممتلكات المحكوم عليهم والمقدّرة ب 446 ألف هكتار وعقوبات مالية بلغت 65 مليون فرنك فرنسي.

"إنّكم تحكمون اليوم عليَّ بخمس سنوات ولكنّ اللهَ سيحكم لي بخمسة أيّام". ذلك ما نطق به الشيخ الحدّاد وكان قد بلغ من العمر 84 سنة. وما هي إلاّ

بضعة أيام حتى أُفرج عنه من سجن الكدية وهو في سكرات الموت وتوفي في 29 أفريل 1873, أي ساعتين بعد إخراجه من السجن ودُفن في مقبرة سيدي مبروك بقسنطينة بدلا من قرية صدوق مسقط رأسه خوفا من انتقام السكان.

استبدل حكم الإعدام في حق بومزراق يوم 19 أوت 1874 وعُوِّضَ بقرار الإبعاد الإجباري مع الأشغال الشاقة إلى كاليدونيا الجديدة مع كل من سي امحمد الحدّاد وأخيه سي عزيز والقايد علي أوقاسي ومحمد أمقران أوقاسي وسي محمد أوسحنون وآخرين. و هي دلالة على اعتراف فرنسا بالوجه السياسي للأفعال المنسوبة للمحكوم عليهم.

قدم سي عزيز مذكرة لهيئة المحكمة يقول فيها :"إن السجن والموت ومصادرة الممتلكات والحرق والضرب لا يؤدي إلى استكانة وطاعة الشعب لكم، بل أن هذه الممارسات تلهب في الناس الكراهية والثورة ضد

الحكومة. لا أحد يرضى بما جرى لأخيه وأبيه أو ابنه..." لم يكن هذا القرار الأول من نوعه بل سبقه حكم بالنفي في حق المتهمين الستة والعشرين في قضية مقتل العقيد "بوبراتر" مع مساعديه في تداعيات ثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الغربي الجزائري. أبدى بعض المنفيين وقتها رفضهم لقرار الإبعاد الصادر عن مجلس الحرب بوهران ووقعت أحداث شغب واضطرابات خطيرة على متن العبّارة "كالفادوس" وهي في عرض البحر بتاريخ 23 سبتمبر 1867. إنها نفس الباخرة التي كانت قد أقلّت محمد بن عيسى والد نوميا منذ سنتين رفقة إبراهيم بن محمد وهو كذلك من ضواحي سيدي بلعباس ويعتبر أول جزائري وضع قدمه على أرض كاليدونيا الجديدة. لقد قص بن عيسى حكاية رحلته إلى ابنته نوميا والتي لا تختلف في تفاصيلها عن رحلة بومزراق والحداد فيما بعد.

كان الكولونيل "مونتانياك"Colonel Montagnac يحاول نفي كل الجزائريين إلى جزر الماركيز. لم تكفه محارق المغارات التي قام بها وستظل محرقة أولاد رياح بضواحي مستغانم شاهدا على أول إبادة جماعية استعمل فيها العدو دخان الأشجار والأحراش الملتهبة في فوهة المغارة التي آوى إليها سكان القرية وثيرانها وبهائمها.

الرِّحلة البحريّة إلى كاليدونيا الجديدة

نُقِل المحكوم عليهم من سجن قسنطينة إلى سجن الحرّاش ثمَّ إلى وهران عبر القطار. كُبِّلوا مثنى مثنى وأُودعوا سفينة تُقِلُّهم إلى حصن "كيليرن" Quelerin بخليج "براست" الفرنسي. أُفرِغ ممر مرفأ وهران المخصص للصعود إلى الباخرة من سواد المارة والمسافرين ليحل محله بياض لباس المنفيين. ضُرِبَ الممر بطوق أمني رهيب. عَرضٌ مسلحٌ واستعراضٌ لقدرات عسكرية فائقة

في مقابلة فوج من الشباب العزل تثقل مشيتهم البطيئة تلكم السلاسل المحكمة في الأقدام. كانت جلجلة السلاسل وزمجرة المحركات البخارية للسفينة وصفارات الإعلان عن قرب الانطلاق تشكل معزوفة كئيبة سُرَّ بها أصحاب الهناديم الأنيقة السوداء وكل من شملهم مرسوم كريميو وشُذَّاذ الآفاق وحزِن لها كل من انحنت ظهورهم من أثر التحميل المستمر لأكياس قمح الجزائر إلى فرنسا عبر الميناء. كانوا ينظرون من طرف خفي لمجريات التحويل.

كانت الشمس في سماء وهران لمّا دنت من المغيب قد أرسلت أشعتها الخافتة في أفق المياه الزرقاء وما فتئت تلامس بنورها جبل "مرجاجو" لتترك ظلا تنطلق من عمقه الباخرة المشؤومة نحو المجهول.

ودّع ضحايا المحاكمة مرسى وهران الجميل وأفانين أشجاره وخمائل خضرته. كل المشهد المأساوي كان

يجري تحت أَعيُن "سانتا كروز" Santa Cruz الجاثمة على قمة الجبل في حلتها البيضاء.

رُكنوا في أقفاص بطن الباخرة، انفصل ببطء سلم الصعود عنها ودوَّت صفارة الإقلاع وتعالت سحابات الدخان القاتم تلوث صفاء ميناء وهران. لم يعد يفصل المنفيين عن أرضهم إلا ثِقلٌ معدني تغمره مياه الميناء. يرتفع الثقل ليلتحق بفتحة "البابور". بدأت تبتعد شيئا فشيئا عن الرصيف...مخلفةً أثر التقطع القهري للأوصال. رغم المآسي، فارق المنفيون الجزائر فراق آدم جنَّته وخرجوا مشرَّدين يطاردهم اليأس والخوف من المجهول.

بعد رحلة عسيرة، استقبلهم زبانيّة القلعة العقابية في براست بوحشية. أودعوهم الزنازين المظلمة وأذاقوهُم صنوف الشقاء وألوان الآلام. كل محاولة احتجاج جماعية أو فردية كان يرافقها بكل تلقائية دوسٌ بالأقدام يهشم العظام وضربٌ بالسياط يأكل الأجسام.

حان موعد إقلاع الباخرة المقلَّة للمنفيين لسنة 1874 في الخامس من شهر جوان. انطلاقا من "كيلرن"، سيقطع الجزائريون والفرنسيون على سواء في جوف باخرة واحدة مُحِيطَين والعديد من البحار. كانت ملامح وجوه الجزائريين جِدُّ متميّزة عن باقي مناصري ثورة بلدية باريس.

يقول "هُنري ماسنجر"Henri Messenger ...أربعون عربيا بألبستهم الوطنيّة, أقوياء البنيّة. من بينهم أشخاص نبلاء يرتدون ثيابا فخمة...".

أمّا الإقلاع الثاني من نفس السنة، فشمِل 62 معتقلا من بينهم بومزراق والأخوين الحداد، رُحِّلوا بواسطة الباخرة "كالفادوس" Calvados في سبتمبر 1874. يبيّن التقرير الطبيّ لهذه الحملة بعض خصوصياتهم: "..لا تقرأ في ملامح وجوههم عبارات الذُّلِّ والإحباط...".

خلّد معتقل كيلرن البحري رسالة محمد بن بلقاسم إلى المارِشال ماكماهون في سنة 1874، يستجدي فيها

طلب العفو. وصل جواب المارِشال المبشِّر وقد نبت الربيع الثاني والعشرين على دمنة صاحب الرِّسالة. وصلت الرسالة ووجدت محمد بن بلقاسم قد تقاسم تراب جزيرة الموتى "إيل أومور" Ile aux Morts مع ثوار الكومينارد. قاسمهم فُتات قوت المعتقل وها هو يقاسمهم ذرات تراب المقبرة.

انطلقت سفينة "كالفادوس" من براست تمخر عباب البحر. كانوا يقبعون فرادى، مكبلين في أقفاص حديديّة لا تتعدّى مساحتها متر مربّع. كانوا لا يستسيغون من الطعام الـمُقَدَّمِ لهم إلاّ الخبز وحساء الفاصوليا، ولا يأكلون من اللحم شيئا. كان أكثر ما يحبّون التّمر وبقوا محتفظين بنواته في جيوبهم حتّى وصلوا إلى كاليدونيا الجديدة وكان ذلك أصل تواجد النّخيل بجزر المحيط الهادي.

توقّفت السّفينة في جزيرة "بوربون"Ile Bourbon قصد التّزوُّد بالمؤونة والفحم لتكمل رحلتها نحو مجهول قد

يتربص بها. دامت رحلة البحر أربعة أشهر وأحد عشر يوما، توالت عليها العواصف الهوجاء. لم يكن لتلك "الكائنات البشرية" من مخرج لتَحمُّل ضربات الموج العاتية إلا الاستعانة بشد قضبان الأقفاص الحديدية...و كيف تقوى على شدها وهي لا تتناول مما يُقدَّم لها إلا الخبز والماء ولا تستعين على جوع السفر إلا بحبات التمر التي تمرَّر من يدٍ إلى يدٍ وتجوب عمّار الباخرة.

ورد في تقرير لديوان وزارة البحرية مؤرخ في سنة 1874: "...ماذا يمكن لنا فعله؟ لقد أصبَحَت تغذيتهم (أي، المرحلون الجزائريون) مشكلا عويصا بالنسبة للجميع. أذواقهم جد غريبة. باعتبار أنهم مسلمون، يكرهون تناول الخمر والنبيذ فهذا أمر سليم، لكن امتناعهم عن أكل لحم العجل والبقول الجافة فهذا أمر محيِّر. كانوا في عرض المحيط يطلبون الفواكه والصلطة..."

كان الحاج أحمد بن محمد يؤذِّن للصلاة. كان قُربه من الباب العلوي لبطن الباخرة يسمح له برؤية بعض من

السماء وترقب ألوانها حين يفتح فيعطي الإشارة بدخول وقت الصلاة للقابعين خلفه في دهاليز السفينة المظلمة. بارتفاع صوت المؤذن يتسمَّر الضابط مستشعرا هول الموقف.

أصوات تردد خلفه الأذان وأدعية وتسابيح ليُصلّي كل واحد حسب قدرته وظروف طهارته ودرجة حركته. كانت السفينة تشبه خلية النحل. لم يَرُدَّ الشيخ أعراب على طلب أصدقائه في قراءة للقرآن الكريم تؤنسهم من وحشة السفر وغربة المكان...كان يمتِّعهم ويُشنِّف آذانهم بقراءة رائعة طيلة سفريتهم الجبرية عقب كل صلاة رغم سعاله الذي كان يعكر عليهم جمال التلاوة...كان صوته يفوق جبروت الأمواج وقسوة الحديد ويُبدِّد ظلمة قهر الأيام. لم يُجب أحدا...كلُّ الأصوات والأنظار وجِّهت إليه...يبدو أن الخطب جلل. الشيخ أعراب جالس غير أنه لا يتحرك...حتّى سعاله لم يعد يُسمع. ارتفعت أصوات الرُّكَّاب مطالبة

الرُّبَّان بالنظر في أمر أعراب الذي لم تعد له حركة في عباءته.

أقبل العون البحري تحت إصرار بومزراق بخطى متثاقلة نحو الشيخ الهامد. ما إن لمس كتفه حتى هوى على الأرض، جس نبضه ثم ذهب مسرعا نحو ظهر السفينة ليعود بعد لحظات برفقة الطبيب الضابط...

عاين الطبيب الشيخ أعراب وعرف الجميع من صمت الضابط ونظراته أن رحمة الله قد نزلت عليه. فك قيده ومدده على الأرضية الخشبية وسط صدمة رفقائه وحيرتهم وتكبيراتهم واحتجاجهم...

بعد تأكُّد وفاته، طلب الشيخ أحمد من الضابط فك قيده ليقوم بتغسيله...ركن الشيخ خلف حاجز خشبي، طلب دلو ماء...

سكب الشيخ على جسد أعراب ماء البحر مغسلا إياه. عند انتهائه لفه في عباءته الفضفاضة واستعان بأعوان الباخرة ليجعله في شبه تابوت. وقف الشيخ يَؤُمُّ

الجمع وَهُم جلوس مكبلين في صلاة جنازة بحرية. قُرِأَ على روحه الطيبة سور من القرآن ورُفعت أكف الضراعة طالبة الرحمة من الله.

قَدِم أعوان الباخرة، حملوا التابوت وسط تكبيرات وتهليلات "الرُّكَّاب" وذهول البلديين الباريسيين وشفقتهم. أنزل الزبانية التَّابوت أسفل الجزء الخلفي من الباخرة. فتحوا بابا دائريا مقدار انزلاق جسم إنسان في نفقٍ أوّلُه ظلمةٌ حالكة وآخره زرقةٌ خافتة لماء البحر ويخترقها بياض سير السفينة. وضعوا التابوت جانبا في انتظار أن يستعمل في التخلص من راكب آخر. وُضع جسد الشيخ في مقدمة النفق. بدأ الجسد ينزلق برِفق ليلامس الماء برأسه ويغور في أعماق البحر تاركا وراءه حزنا أخرس الألسنة وأصم الآذان وأبكى العيون.

قُدِّم الشيخ قربانا للحضارة المزعومة وغاب الجسد المنهك بالمرض والقهر والبعد في قعر البحر. لا زال

صوت الشيخ أعراب يتردد في آذان "المسافرين" عقب كل صلاة.

تستمر الرحلة بمعاناتها ويتكرر معها مشهد الموت البطيء الذي بات يتربص بكل من عكَّر صفو الرحلة بسعاله الحاد...في آخر الرحلة، سُجلت أربع جنازات بحرية لم يكتب لأصحابها الوصول إلى يابسة المحيط الهادي.

بات مؤكدا عند الجزائريين أنهم أصبحوا يتقاسمون أعراض الوباء الذي جلبه البلديون معهم من أغوار أحياء باريس وسجونها. زاد توتر المرحلين وكثرت احتجاجاتهم وأيقنوا أن هلاكهم بات وشيكا جراء الوباء الخطير.

كغير عادة من يوميات الرحلة البحرية، امتنع المرحلون الجزائريون حتى من تناول الماء والخبز والحساء الساخن والدواء...أمسك الجميع حتى على تناول التمر الذي من عادتهم أن يدور بين أيدي الركاب...أخطرَ الأعوانُ قائد الرحلة الذي كان في قمرة القيادة.."...سيدي

الضابط، لقد دخل العرب في إضراب عن الطعام. وضعوا جانبا وجبة الغذاء المقدمة لهم !!" "...هل من مطالب يريدوننا تحقيقها؟... لم يعبِّروا عن أي طلب حضرة الضابط يبدو أنهم فقط أضربوا عن الطعام دون سابق إنذار!!".

استلم الضابط بسرعة سلم بطن الباخرة والغضب يتطاير من عينيه. دخل ظلمة السفينة ورمى بنظرات حادة وماسحة في وجوه "المسافرين" واحدا تلو الآخر إلى أن استقر نظره الشرس في وجه الشيخ بومزراق. "ما الأمر سيد بومزراق؟...تعلنون الإضراب عن الطعام بهذا الشكل...ونحن لا زلنا في عرض البحر...لا زال يفصلنا عن الوصول حوالي أسبوعين...إن الرحلة طويلة وشاقة وليس بوسعي أن أقدم لكم أكثر مما قدمته لكم!!...لا أشارككم الرأي عندما أرى أن المرضى لا يأخذون حتى دواءهم....

هذا أمر غير مقبول يا سي بومزراق".

"...حضرة الضابط...ليس الأمر كما تتصور. كل ما فيه، أننا في أول شهر رمضان ونحن باشرنا صومنا منذ فجر اليوم وأنت ترى أن بعضنا يحتفظ بوجبته إلى غروب الشمس..." بُهت ضابط الرحلة وصَمَت برهة من الزمن مذهولا من كلام الشيخ وحرَّك في نفسه احتراما وتقديرا لإيمانهم..."...إذا احتجتم أي شيء فلا تتردوا في المناداة !!". "...نرجو فقط إعلامنا بغروب الشمس، فأنت تعلم أننا في ظلام دامس منذ أربعة أشهر!!". يطلب بومزراق.

استمر الحال طيلة باقي أيام الرحلة وقد أبدى ضابط الرحلة ورُبَّان السفينة تعاطفًا حميما...

تطورت الوجبة ساعة الإفطار والإمساك كمًّا وكيفًا وفتحت النوافذ الرئيسية لزيادة التهوية والإنارة وتحسَّنت معاملة الأعوان خاصة اتجاه المرَحَّلين الجزائريين.

جزيرة الصنوبر Ile des Pins

وصف "جونيس كاتون"Joannes Caton ، أحد المنفيين الكومينارد وصول الدفعة الأولى من المنفيين الجزائريين إلى كاليدونيا الجديدة:"...من أعالي التّلة، كان سكان القرية يصفون وصول "متمرِّدي الجزائر" : "...كانت تنتظرنا مفاجأة غريبة...ظهر المراقبون في المنعطف يتبعهم حوالي 40 شخصا يرتدون ملابس بيضاء، في البداية ظننّا أنهم زوجات زملائنا، ولكن وحدة لباسهم أظهرت أنهم إمّا مجموعة راهبات أو مجموعة من التّائبين فكنّا نُحاول جاهدين معرفة حقيقتهم. وعند وصولهم إلى السجن, تعرّفنا عليهم وانبعث صراخ واحد "العرب...إنهم العرب...إنهم العرب", و بالفعل لهم شَبَه كبير بالأشخاص الذين قابلناهم في قلعة "أورليون"

Orléans, وكانوا موجّهين إلى "جزيرة الصّنوبر" وأُنزلوا هنا لقضاء باقي شهر رمضان."

تقول المنفيّة المتمرَّدة لويس ميشال Louise Michèle المرافقة لهُنري روشفورد Henri Rochefort، التي رُحِّلت في العاشر من شهر أوت سنة 1873على متن الباخرة "فيرجيني" Virginie :"...في صباح أحد الأيام, خلال الفترة الأولى للنفي, شهدنا وصول بعض العرب في برانيسهم البيضاء, وقد نُفوا لأنهم ثاروا ضدّ القمع, هؤلاء الشرقيون الذين سُجنوا بعيدا عن خيامهم وقطعانهم, كانوا بسطاء وطيّبين وعادلين. ولم يُفهم سبب معاملتهم على ذلك النّحو..."

وتضيف لويس ميشال: "...في 18 جانفي 1875, أحضر الكالفادوس 59 عربيا...هؤلاء التعساء الذين حرمتهم معتقداتهم الدّينية المسبقة من كلِّ ما قُدِّم لهم على متن السّفينة:خنزير مُمَلّح, لحم البقر, خمر...وصلوا في حالة مُزريّةٍ، فلم يَترك داء الحفرِ فيهم شيئا، وكانوا

يترنّحون في سيرهم وبعضهم لا يستطيع قطع ثلاثة أقدام دون أن يجلس. وكان يقود هؤلاء الرّجال نصف الموتى مراقبان مسلّحان ويُجبرونهم على تفريغ مطارحهم التي كان يسهُل نقلها على سيّارات الإدارة...". كان ضمن هذه الرحلة الشيخ أحمد بومزراق وسي عزيز الحداد وأخوه سي امحمد.

كانت لويس ميشال خطيرة المزاج، فوضوية النزعة وعنيدة الطباع. انبهرت بالجزائريين والكاناك على حد سواء وكتبت عنهم الكثير من مذكراتها. أُلقي القبض عليها خلال ثورة الباريسيين وحُكم عليها بالترحيل القسري في الوسط المغلق بكاليدونيا الجديدة بسبب حمل السلاح وارتداء بزّة عسكرية.

كان ترحيلها فرصة لها لاكتشاف البحار والطبيعة الموحشة وصقيع الجزر الجنوبية واستلهمت من كل ذلك أشعارها وكتاباتها. كانت تتقاسم بؤس السجن رفقة ثمانية عشر من النساء الباريسيات في معتقل "نامبو".

قالت أثناء محاكمتها أمام مجلس الحرب السادس:"...أنا لا أريد أن أدافع عن نفسي ولا أقبل أن يُدافعَ عنّي أحد...أنا انتمي إلى الثورة الاجتماعية وأتحمّل مسؤولياتي كاملة حيال تصرفاتي. وإذا كانت لكم الجرأة كافية فارموني بالرصاص إن استطعتم..." .

أنهت عقوبتها في بوراي وأُطلق سراحها بعدما رفضت العفو الذي اختُصَّت به تضامنا مع زملائها سنة 1879. وكتب فيكتور هيجو Victor Hugo عنها في إحدى مذكراته أنها قالت حينها:"...الموت أهون من الرجوع إلى فرنسا وإن كان لابد فسأكون آخر من يعود إليها...".

هذه هي الظروف التي وصل فيها المنفيون عبر الكثير من الرحلات البحرية. ينزل من له قدرة على المشي يجر سلاسله بين قدميه وهو مثقل الخطى بالأغلال التي تطوق العنق. كانت صلصلة السلاسل هي الصوت الغالب طيلة الإيداع في القلاع العقابية. بمجرد الوصول

يُسجَّل الوافدون وتحلق رؤوسهم ولحاهم ويُزَجُّون مكبَّلين يعانون القهر والتجويع والهوان.

عجزُ الإدارة الاستعمارية قلَّل من فرص حسن إطعامهم من جوع ومن كسوتهم...في غياب ألبسة تليق بالأشغال الشاقة في المحاجر والمناجم، بات من الضروري أن يخيط النزلاء لباسهم من قماش أكياس القمح و الذرة. كانت ألبسة عفنة تفوح من أنسجتها البالية روائح العرق و نتانة الجسد الذي لم يلامسه الماء منذ شهور طويلة.

حصن ديكوس

كانت وحشيةً لا مثيل لها...تداول النزلاء الجزائريون غرابةَ ما يحدث في الحصن الذي آواهم بعد رحلتهم البحرية. وعلموا أنهم دخلوا نفقا لن يخرجوا منه أبدا ولن تسمع بمصيرهم أذن بشرية بعد اليوم. دوّامة من الخوف تفنَّن الحُرَّاس في صناعة مشاهدها المرعبة تارة تحت وقع المقصلة المنتصبة في ساحة السجن وتارة على صوت البنادق المعدة للإعدام خارج الأسوار بدعوى مطاردة الهاربين من الحصن.

قصّة "ألبير" ذلك السجين الفرنسي صاحب الثلاثين ربيعا، الذي كان يتمتع بحرية التنقل ليوزع الوجبات على المساجين ويرعى احتياجاتهم، سمع ذات ليلة الحرّاسَ يتراهنون على رأسه وَهُم في غمرة اللعب على طاولة النرد.

اختلج قلبه في صدره وأوجس منهم خيفة ولم يجد من سبيل يخلِّصه من نهاية محتومة لهذه اللعبة إلاَّ الاستعانة في غفلة من أمرهم بطوق برميل رفعه دون تردد إلى أقصى حد يصله ذراعه المرتجف ليضرب به أطراف يده اليسرى الممددة على أرضية المطبخ. صرخ صرخة واحدة زلزلت سكون الحصن وهدوء الأجساد الملقاة على أرضه. توقفت لعبة النرد فجأة وهرع الحراس يتحسسون مصدر الصراخ، ليجدوا ألبير مغشيا عليه.

ولّى ضابط المداومة شطر المطبخ وهرع مندهشا ومشدوها لمعرفة السبب. وقف على هول المشهد، يَلعَن تارة ألبير الملقى على الأرض وتارة يوبِّخ الحراس على إهمال المراقبة. حُمل إلى العيادة ولُملِمَت يده المدرّجة بالدماء وجُمعت أصابعه في خرقة وأُمر نزيل آخر بتنظيف المطبخ من آثار الدم.

" ما حملك على القيام بهذا الفعل الشنيع وتؤذي نفسك بهذه الطريقة يا ألبير؟"

"...قَطعُ يدي كاملة يا دكتور أهون إليَّ كثيرا من أن أُرمى بالرصاص خلف الأسوار وأذهب أبدا إلى الجحيم ويبقى لي أمل رؤية زوجتي في باريس..." يقول ألبير مجيبا على سؤال طبيب العيادة مسترسلا في ذكر مجريات الحادثة منذ أولها. يبدو أن الرهان كان عادة عند بعض الحراس المجانين الذين يختلقون فيما بعد حججَ محاولةِ الفرار من القلعة ويصنعون سيناريوهات ضرورة إطلاق النار على الفارّين...سجل بعض النزلاء البلديين بعض مذكراتهم يجمعون فيها أن بعض السجناء "الكسالى" كانت تدخل رؤوسهم في أوكار النمل عقابا على امتناعهم القيام بالأشغال الشاقة لعدم قدرتهم مقاومة الجوع والمرض والإرهاق الجسدي والنفسي. كان "الكسول" لا يعود إلى مخدعه إلاّ بوجه ملطخ بدم الجراح التي يتركها النمل على وجنتيه.

كان يُوزَّع الحساء في أوانٍ حديدية. حتَّى أنَّ بعض المنفيين الذين سُرقت أوانيهم كان يُفرغ لهم في أحذيتهم

الحساء والماء. كما يذكر المنفيون الأوروبيين في بعض مذكراتهم أن الحصن العقابي "ديكوس" كانت تنتصب مقصلة في ساحته تتوسط بنايتين كبيرتين. يصطف المراقبون يسارها وأسلحتهم تلامس الأرجل، أَمَّا عن يمينها فيصطف أفراد الكتيبة ويقف المحكوم عليهم في واجهة المقصلة. يرتفع صوت: "المحكوم عليهم...على ركبكم...قبعات انزع.. !!! "

يقرأ كاتب الضبط قرار المحكمة...يجف الحلق، يضيق الصدر..."هل لديكم آخر ما تودون قوله؟"...بعدها لم يكن إلا لراهب الكنيسة أن يطلب لهم الغفران ويبشرهم بالقبول الرباني وغفران الذنوب...

بعد سكون الدقات المتسارعة للطبول يضغط "ماتي" Mati على زر المقصلة لينزل السكين الضخم...مخلفا وراء ارتطامه هولا مخيفا ومنظرا تقشعر منه جلود من له حس مرهف ويُتداول الخبر المخيف تاركا أثرا قاتلا في نفوس الجزائريين والأوروبيين على حد سواء.

بداية الإعمار

بعد مغادرة الحصون الرهيبة، استقر الجزائريون في الحصة الخامسة من شبه الجزيرة ديكوس وكانت تسمى "مخيم العرب". أرضٌ قليلة الخصوبة مقارنة مع الحصص الأخرى. أيُّ إنسانية بقي الحديث عنها حينما يقع التمييز والتفرقة حتى في المواجع؟ أي محصول ينتظر من هذه الأرض المقفرة القاحلة؟ رغم ذلك استُصلحت الأراضي ونبتت الزروع وأُعيد كل ذلك من جديد بعد مرور الأعاصير ومشاركة أسراب الجراد في تدمير الأخضر واليابس.

بعد أهوال الوصول، بدأت نفوس المنفيين الجزائريين ترتاح شيئا فشيئا. أقاموا أكواخهم القصديرية، أجروا ماء السقي، غرسوا النخيل والأشجار وكل مستحقات أجسامهم من الخضر والفواكه. كان غالب المنفيين من الفلاحين الذين يجيدون زراعة النخيل وقد ساهمت

موجة الجفاف التي ضربت الجزيرة في سنة 1882 و1884 و1885 في نماء النخيل وتأقلمها.

تزوجوا من ثائرات بلدية باريس وأنجبوا أطفالا "فرنسيين". كان من حقهم الدراسة في أقسام الراهبات بعد وجوب تغيير أسمائهم العربية. امتهنت "لويز ميشال" الباريسية صاحبة مذكرات النفي، التعليم لمدة خمس سنوات في جزيرة ديكوس. كانت تُعلِّمُ الموسيقى والرسم في مدرسة البنات وامتهنت حرفة تربية الحيوانات الداجنة وزراعة المشاتل. أخذت لقب "المواطنة الكبرى".

الاستثناء من العفو العام

قبل تنحي الماريشال ماكماهون من الحكم وترك منصبه إلى "جيل قريفي" Jules Grévy ، أصدر قرار عفوٍ عامٍ بتاريخ 15 جانفي 1879 في حق ألفين من المرحلين الكومينارد. عمَّت الفرحة المختلطة بكآبة اليقين من الاستفادة من العفو وساد الترقب والانتظار نفوس كل المرحلين الفرنسيين والجزائريين القابعين في البلديات الخمس لكاليدونيا الجديدة. القائمة لا زالت لم ترد إلى الجزيرة.

أُفرغت الجزيرة من عامة البارسيين ولم يبق بها إلاّ المنفيون الجزائريون وبعض أصحاب السوابق الباريسيين الذين لم يشملهم قرار العفو. وأصبحت الجزيرة شبه خالية من عمّارها وبات المنظر السائد، بيوتٌ مهجورة وأكواخٌ فارغة ومزارع بدأ يدبُّ فيها الجفاف والخراب.

اعتقد الجزائريون أن ثمة خطأ في القوائم وأنَّ نسيانا وقع في إعدادها. لكن كانت الصدمة قوية حينما أدركوا أن الأمر رسمي وأنَّ الاستثناء وارد بصفة قانونية. لم يتحمل المرحلون جور القانون وأثَّر ذلك في نفسيات الكثير منهم. لم تشفع الخدمات التي قدّمها الشيخ بومزراق إلى الحاكم "أولري" في سبيل استعطاف فرنسا لإطلاق سراحه."...لقد تخلّى عن تجارته في جزيرة الصّنوبر حتّى انهارت تماما ليتفرّغ لحماية المدينة من هجمات الكاناك الثائرين وقد قدّم أدلّة أكيدة حول ارتباطه ببلدنا..."

تلك خلاصة ما صرّح به "أوباي" في رسالة طلب العفو لصالح بومزراق لسلطته الوصيّة في باريس. باءت كل محاولات إطلاق سراحه بالفشل ونُسِب أمر عدم قبول العفو على بومزراق وباقي الجزائريين إلى الحاكم العام في الجزائر. لم يُقبل عفو كل من يُعتقد أنه يشكل خطرا على فرنسا أو من ثبتت موالاة عشيرته أو عائلته إلى من يحارب فرنسا في الجزائر.

كان العفو فرديا بعد الدراسة والبحث تحت شرط طلبه من الحاكم العام والتعهد بالانضباط ولم يرقى إلى العفو العام الذي كان مطلب كل الجزائريين. غير أن هذه القرارات الفردية للعفو ساهمت في إفراغ الجزيرة من الجزائريين المرحلين بشكل تدريجي.

كان حظ الفرنسيين المنفيين وافرا تحت ضغط مقالات ونداءات الكاتب الشهير "فيكتور هيجو"، لقد أفلح بمشاركته في حملة المطالبة بالعفو عن البلديين الباريسيين والضغط على الحكومة من أجل تنفيذه وتوفير البواخر لعودة المنفيين إلى فرنسا.

حرب الكاناك

في متاهات ضياع هوية السكان الأصليين الكاناك، أعلن "آتاي" Ataï زعيم قبيلة "أوراي" الثورة ضد المستعمر الفرنسي في كاليدونيا في 19 جوان 1878.

إن إقدام فرنسا على ترحيل السجناء إلى كاليدونيا لقي سخطا واعتراضا من قبل زعيم قبيلة جزيرة الصنوبر "صامويل" وزوجته الملكة "هورتنس".

كان آتاي رمزا وطنيا ضد صور التعدي على خصائص الشعب الكاناكي. دخل يوما على الحاكم "أورلي" وهو جالس على أريكة فاخرة في عمق القاعة الشرفية لمركز الحاكم. وقف يحملق في الحضور ويركز نظره على الحاكم. لم يكن يرتدي إلا حِلَقًا وأنيابا من عاج على صدره وقطعة قماش تلف جسده الأسمر المفتول وعلى شمال حزامه المزركش غمد يظهر منه مقبض خنجر كبير.

تسمّر وسط القاعة وهو ينظر إلى المحيطين بالقاعة حاملا كيسين. كيس بيمينه وآخر بشماله. "...ماذا تحمل لنا يا آتاي...لا شك أن ما تحمله هدية ثمينة... !!" جملة تفوّه بها الحاكم، انطلقت بعدها موجة من الضحك والقهقهة داخل القاعة الشرفية. أسرَّ آتاي غيظا شديدا في نفسه وأبدى لهم سخطا تطاير من عينيه، أصاب الحاكمَ بنظرات حادة وتمتمات غير مفهومة.

قال أحد مساعديه متهكما:"...لعلها، سيدي الحاكم، كنوز الجزيرة التي سرقها أتباعه، جاء ليردها إليك !!".

فَهِم آتاي كل ما يدور بين الحاكم ومساعديه، تقدم قليلا نحو أورلي، حاول أن يمنعه الحرّاس غير أن الحاكم أمرهم بتركه يتقدم.. وقف أمامه يمعن النظر في عينيه. وضع كيسا على الأرض ثم رفع الثاني إلى الأعلى وأفرغ التراب الذي بداخله، فقال: "هذا ما كنا نملك" ثم أفرغ الكيس الثاني المليء بالحجارة فقال: "هذا ما تركتم لنا".

أدارَ للحاكم وحاشيته ظهره ثمَّ انصرف بهدوء وساد صمت رهيب داخل القاعة ودون أن ينتظر ردا من الحاكم.

كان هذا الموقف إشارة لبداية حرب لطالما انتظرها الكاناك. بعدها بيومين، شهدت الجزيرة حادثة هزّت مشاعر السكان الأصليين، إنها قضية احتجاز بنتٍ من قبيلة أوراي اسمها "كاتيا". كانت تعمل لدى عائلة "شان" من الكولون الفرنسي. احتُجزت الفتاة عقابا لها وقبيلتها بسبب مغادرة بيت العائلة الفرنسية دون إذنٍ وعِلمٍ من "شان"، بعد رجوعها من بيتها العائلي، ضُربت ضربا مبرحا وجُلدت على ظهرها أمام أعين الخدم بعدما رُبطت على جذع شجرة في مزرعة شان وأُدخلت وهي تئن من آلام الجلد في قبو تحت البيت ومُنع عنها الأكل والشرب.

ألحَّ الزعيم آتاي في طلب إطلاق سراحها من السيد "شان"، لكن لم تفلح طلباته في كبت هيجان القبيلة

من الثأر. عاد آتاي مجددا إلى الحاكم أورلي يستعطفه في إطلاق سراح الفتاة من "شان". فقال الحاكم: "...إذا بقي لك شيء من تلك الأكياس، فالأجدر أن تقدمها إلى عائلة "شان". لعل ذلك يشفع لك في إطلاق سراحها !!". استشاط آتاي غيضا من رد الحاكم وقرَّر عندها، بعدما رجع إلى عرينه، إعلان الثورة ضد الفرنسيين.

في الليلة الموالية، أغار الثوار ليلا على منزل عائلة شان وحرروا الفتاة بعدما أبادوا العائلة بأكملها ثم رجعوا بها إلى قريتها "دوني". كانت عملية التحرير إيذانا بقيام الثورة الشاملة على المحتل الفرنسي. توسعت عمليات الاغتيالات وشملت المعمِّرين والأجانب والمرُحَّلين المفرج عنهم. أصبح الخطر يحدق حتى بالجزائريين. لم يعد للجزيرة سكون بعد اليوم. أُحرقت المحاصيل وانتشر الذعر في كامل أرجائها.

تزعم الشيخ بومزراق بمساعدة البشير بن علي بوقرّة سريّة خيّالة "بوراي" مكوّنة من 42 فارسا لمواجهة هجمات الكاناك المحتملة. كانت هذه السرية تنشط في إطار الدفاع الذاتي لحماية الحي الجزائري من أي غزو كاناكي.

اندلعت الحرب بشراسة وتزعم "نودو" زعيم قبيلة "كانالا" الحرب ضد "آتاي" بقيادة "سيغو".كانت حربا غير متكافئة...جبهة يمثلها الكاناك المنشقين والعارفين بخبايا الغابات والسهول والجيش الفرنسي الذي ينشط تحت لوائه الشيخ بومزراق ورفاقه الذين أخذوا العهود والمواثيق بتحريرهم وعودتهم إلى الجزائر بعد القضاء على انتفاضة آتاي مقابل حراسة أهالي المنفيين. الجبهة الأخرى يمثلها الزعيم آتاي وأبناءه وأقرب الناس إليه.

في آخر معركة، حُوصِر آتاي وبوُغت في مكان ضيِّقٍ من الغابة بخيانة من أقرب معاونيه. قُتل جميع أفراد آتاي

ولم يبق إلاَّ هو وثلاثة من أبنائه ومساعده "الساحر".. استمات أبناؤه في الدفاع عنه لما باغتته جماعة "سيغو". قُتل أحدهم أمام عينيه وأُلقي القبض على الآخرَين. تقدم سيغو نحو آتاي وهو يتحين فرصة الانقضاض عليه. "...ها قد جئتَ يا سيغو !!!" يصرخ آتاي... واصل سيغو تقدمه نحو آتاي الذي أبدى مقاومة شديدة، لكن ما لبث أن غرس في ذراعه الأيمن رمحا جثا إثره على ركبتيه ثم تقدم سيغو فهوى عليه بساطور على رأسه فهشّمه فخرّ الزعيم آتاي ميتا في الأول من سبتمبر1878. جُرَّت جثة آتاي من بين الأحراش والأشجار و ألقيت أمام "نودو" الذي أمر سيغو بفصل رأسه و رأس مساعده أمام جمع من السكان الكاناك.

قُطع رأس آتاي ومساعده الساحر "لوماش" في كاليدونيا الجديدة كما قُطع في الجزائر خلال المقاومة الشعبية، رأس محمد الأمجد بن عبد المالك المعروف بالشريف بوبغلة، والشيخ بوزيان القلعي قائد مقاومة

الزعاطشة وابنه الحسن، والشيخ موسى بن الحسن الدرقاوي وابنه، وسي مختار بن قويدر التيطراوي، وعمر بوقديدة، و عيسى الحمادي مساعد الشريف بوبغلة، ومحمد بن علال بن مبارك أحد ضباط الأمير عبد القادر، ومحمد ولد علي أسد جبل بني سمير في الجنوب الغربي، يحي بن سعيد...وآخرون.

تلك الرؤوس التي أينعت بحب الأوطان والتضحية من أجلها، قطفها جور المستعمر ووُضعت في متحف قسنطينة. بعد التحنيط والحفظ بمسحوق الفحم، حوَّلها كل من "ريبو" و"فيتال" وسلَّماها إلى "رينو" وأودعت في صناديق مرقمة في رفوف المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي في باريس. حُجِزت الجماجم والتحف والآثار والنصب والألواح...و حُجِز مدفع بابا مرزوق حامي حمى المحروسة ونُصِب رأسًا على عقب في ساحة براست..

كان سلوكا عدائيا لإرهابِ كل من تسوّل له نفسه الوقوف في وجه عملية استغلال الشعوب...خطورة الأمر أن جل العمليات الشنيعة كانت تتم بأمرٍ من الضباط وبتنفيذٍ مُروع ممن يُكِنُّ العداء للزعيم من بني جلدته وخلاَّنه.

تُعلَّق الرؤوس في الساحات العمومية والأسواق الشعبية، لا لتوديع أصحابها ولكن لاجتثاث كل محاولة يائسة من الصدور. الرسالة واضحة...الويل لمن يخطأ في حق فرنسا.

استفاد أحد عشر مجندا من الجزائريين من العفو مقابل مشاركتهم في فرق حماية أحياء المنفيين من هجمات الكاناك، نُقلوا باستثناء بومزراق بتاريخ 27 نوفمبر 1879 على متن باخرة "لاكروز". كان سي عزيز الحداد يرى أن يبقى هو وأخوه امحمد في منأى عن كل ما يجري من أحداث ووصف قراره بأنه أكثر حنكةً ودهاءً من بومزراق في مسألة حرب الكاناك ولو على

سبيل الوقاية. رفضا المشاركة وأمسكا عن أي تعليق عنها وأصبحت القضية في عداد الفتنة التي تصح فيها:"...القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي...".

كان الكاناك يعتبرون حمل بعض المنفيين الأجانب السلاح ضدهم وفي أرضهم مهانة في حقهم. وفي حقيقة الأمر أن ذلك التجنيد الذاتي لم يكن إلاّ دفاعا عن النفس في زمن الانفلات الأمني الذي شهدته الجزيرة...وذلك ما شهد به المنفيون.

كانت علاقة شيوخ القبائل الكاناك بالجزائريين عموما طيبة والشاهد في ذلك هو خدمات الإمداد بالنباتات الطبية التي كان يوفرها زعماء القبائل في بوراي إلى الجزائريين في علاجهم ضد السعال وأمراض الجلد، خصوصا النباتات التي تُعجِّلُ بالتئام جرح ختان الأطفال.

يبدو من خلال سجلات الحالة المدنية لمدينة نوميا أن الكاناك طووا صفحة المعاتبة وتناسوا الأمر وزوّجوا بناتهم للجزائريين المنفيين.

كثَّف الشيخ بومزراق من استثماراته الاقتصادية وطوَّرها ونوَّعها وشملت هذه المرّة قطاعي النقل والمواصلات ونجح فيها. رغم ذلك صمَّم على العودة...وصمم الحاكم العام في الجزائر على رفضها.

في أبجديات الإدارة الاستعمارية، لا زال بومزراق رغم نشاطه في نوميا يبقى يشكل خطرا على فرنسا في الجزائر...كان يشكل خطرا عليها من جانب مطالبته بممتلكاته الخاصة التي حجزتها له منذ ثلاثين سنة.

رافع روشفورد صاحب جريدة "لا لنتارن" La lanterne وأصدقاء ثورة الباريسيين من أجل العفو عن الجزائريين المنفيين. تضامنوا معهم منذ عودتهم بموجب العفو العام وطلبوا من سلطات بلدهم تلبية صرخة الاستغاثة التي وجهها كل من إبراهيم بن شيرين وأحمد بن إبراهيم –

رفيقا روشفورد في الأسر في كاليدونيا الجديدة-. و في صحيفة "لانترُنزيجون" L'intransigeant ليوم 17 ديسمبر 1895 ورد عنهم:"...لا يختلف اثنان أن العرب الذين تُركوا في كاليدونيا الجديدة هم أيضا مدانون إدانة سياسية مثلهم مثل الذين استفادوا من قانون العفو. ألم يُحكم على ثوار بلدية باريس بموجب القوانين العادية مثلما حُكِم على بومزراق المقراني؟...

...ألم يُتهموا بالسرقة والقتل وإضرام النيران وحمل السلاح في وجه فرنسا؟ هؤلاء أيضا لم يستفيدوا من العفو سنة 1880.إن القانون لا يحتمل أي إجراء استثنائي، ولكن الحكومات ترى أنه، إضافة إلى الإجراءات القانونية المعمول بها، ثمة دائما تدابير أخرى وعلى هذا الأساس تمّ إبعاد ونفي العرب إلى نوميا خشية أن يطالبوا باستعادة ممتلكاتهم عند عودتهم إلى الجزائر. لقد تم العفو عن المقراني وجماعته يوم 2 فبراير ولكن السيد "فيليكس فور" لم يعف عنهم...و ها هي

عشرة أشهر مرَّت وهم لا يزالون محبوسين بصفة غير شرعية". انتهى مقال الصحيفة.

فرار سي عزيز الحدّاد من الجزيرة

إنّ هروب "روشفورد" من كاليدونيا الجديدة في 19 مارس من سنة 1874 رفقة "باليار" و"جورد" و"باسكال قروسييه" الذي أصبح فيما بعد مساعدا للكاتب الفرنسي "جيل فارن" Jules Verne تحت اسم مستعار "أندري لوري" واثنين من رفقائهم عبر قارب أسترالي ونجاحه في الوصول إلى سويسرا قبل العفو الشّامل بست سنوات, أعطى الشّهية لسي عزيز ابن الشيخ الحدّاد في التحضير للفرار سنة 1881 من الجزيرة.

تُظهر إحصائيات الجزيرة أنه بين 1884 و1889 فرّ ثمانية عشر مرحّلا جزائريا من كاليدونيا، كان أبرزهم :

سي رحيم بن محمد أولحاج، علي أوسعيد و اعمر بن الونوغي، غير أن العديد منهم أعيدوا إلى حصون الجزيرة بعدما ألقي القبض عليهم مجددا في فرنسا والجزائر.

قرّر سي عزيز الفرار في الفاتح من أفريل سنة 1881. لم يعبأ بما وقع للدكتور "رستول" Dr Ristoul الذي فرَّ يوم 11 مارس 1875 رفقة تسعة عشر من رفقائه لكن اضطراب البحر وشدة العاصفة كانا كفيلين لإبادتهم جميعا في عرض البحر قرب جزيرة "أوون".

لم تكن تطلع على سي عزيز الشمس في مكان حتى تغرب عنه في مكان آخر. اغتنم فرصة قرع العواصف لبيوت القصدير وزمهرير الريح في جنح الظلام. تسلّل إلى جانب الميناء متسترا ومتنكرا بزي أوروبي ويحذوه شوق الرجوع إلى الجزائر.

استهل هروبه على متن قارب على شاطئ معزول ليصل أفق البحر اتجاه زورق يمتلكه بريطاني كان ينتظر قدومه. أشار عليه بالفانوس خلف مرتفع حجري في عرض

البحر. كان ركوبه في الزوارق والمشي على ألواحها والجلوس على شبه مقاعدها فقط بإشارات الأعين والإيحاءات الصادرة ممن تسلموا أموال خدمة "الهجرة غير الشرعية".

لقد كلّفه الهروب دفع رشاوى ثقيلة إلى عمّال البحر. غادر الزورقُ المرفأَ المضطرب على وقع ضربات الأمواج العاتية وانطلق الجدَّاف يصارع أمواج البحر الهائج تارة ويستريح تارة أخرى في جزر المحيط الهادي الصغيرة التي لا تشكل خطرا على نجاح المغامرة.. غابت مصابيح الجزيرة في أفق الظلام ولم يعد لها أثرا حتى وصل إلى زيلاندا الجديدة.

عند أول يابسة تنزل بها الباخرة، كان على سي عزيز أن يتخذ سببا آخر لتغيير وجهته. استعان في جنح الظلام بسفينة بخارية كان صاحبها في انتظاره. ولم يصدق أنه وصل إلى سيدني.

كتب سي عزيز إلى أحد أقاربه: "...إن المسافة بين سيدني ومكَّة بين 20 إلى 25 يوما عن طريق البحر، وأتمنى الوصول في 5 جويلية..." وكتب رسالة أخرى وقعت في أيدي السلطات الفرنسية:"...يوم العاشر من جوان سنة 1881، سأستقلُّ باخرة توصلني من سيدني إلى السويس. أَودُّ الذهاب إلى مكَّة بعد موسم الحج...بعدها سأدخل إلى الجزائر إذا سمح لي الحاكم العام بذلك. لقد كتبتُ له رسالة في هذا الشأن. من جهتكم، إذا وصلكم كتابي هذا، فيجب أن تتصلوا بالمتصرف الإداري لآقبو رفقة شيخ القبيلة، سيقدم لكم العون لدى الحاكم العام...إذا تسلمتم قبولا كتابيا يمنحني العفو، فأرجو إبلاغي به على الفور...دمتم إذن سالمين وسأكتبُ لكم بعد الحج من الإسكندرية أو من تونس. ابعثوا لي ترخيص الحاكم العام، سألتحق بكم في الجزائر. في حالة الرفض، سأبحث لكم عن إقامة وأدعوكم للالتحاق بي فيها..."

تغيَّب سي عزيز في اليوم الموالي لفراره عن العد اليومي، تفقدوا بيته، سألوا عنه...افتضح الأمر في الجزيرة وأُعلن النفير في كاليدونيا الجديدة وأُعلمت مقرات الحراسة الفرنسية في كل مرافئ جزر المحيط الهادي وفي اليمن ومصر والحجاز ومارسيليا. وصل إلى قناة السويس متخفيا وراء اسم مستعار في الأيام الأولى لجويلية ثمّ جدّة.

بعد ثلاثة أيام التقى بن عيسى بالشيخ بومزراق. "أراك مهموما اليوم يا شيخ بومزراق". "طأطأ رأسه وظهرت على وجهه علامات اليأس والإحباط... لم نل لا شرف الشهادة في الجزائر، ولا جرأة الهروب من هذه الجزيرة. لقد اتخذ سي عزيز قرارا صائبا...رغم أن علاقتنا كانت مضطربة منذ زمن بعيد...إلا أنني أغبطه على الهروب. لقد فر من جحيم الغربة...لا زلنا هنا ننتظر أن يدركنا عفو الفرنسيس... لم يشفع لنا في شيء انضباطنا الزائف لقانون الجزيرة !! "

"إن فرنسا يا سيدي بومزراق قد بنت سلطانها على إخلاف المواعيد والتنكر لكل ما هو إنساني وأخلاقي...لكن لابأس...إن الله لا يضيع أجر المحسنين." رد بن عيسى.

بقي سي عزيز في أمان بالحجاز خمس عشرة سنة في انتظار أن يأذن له الحاكم العام بالعودة. استقر سي عزيز في الحجاز وتزوج فيها وصار له أولادا يضافون إلى أولاده الذين خلّفهم في الجزائر.

في 14 فبراير 1895، أبرق قنصل فرنسا في جدَّة إلى وزير الخارجية "هاناتو":"... يشرفني أن أعلم سعادتكم أن الشيخ عزيز القادم من السويس، قد نزل أول أمس بجدة ووصلتني الجريدة الرسمية التي صدر فيها قانون العفو المؤرخ في 1 فبراير عن طريق البريد الذي حملته السفينة التي سافر فيها. تم الحصول أخيرا على العفو لصالح المتمردين المنفيين في 1871، و سي عزيز يريد

العودة إلى الجزائر ويطالب بأراضيه وأملاكه المُصادرة والمُوزعة في نهاية الانتفاضة.."

انتقل من الحجاز إلى مارسيليا ثم إلى باريس بعدما تحصل على عفو وضمانات بعدم التعرض له. لم يكن له من سبيل إلا البحث عن أصدقائه البلديين وسط باريس. وصل عند صديقه "أوجان مورو" في المقاطعة 11 شارع "فوجيرارد" . سُرَّ بعودته ودعا زملاءه القدامى لزيارته. بقي سي عزيز مقيما في بيت صديقه إلى أن مرض مرضا مفاجئا، توفي على إثره في مستشفى باريس في 22 أوت 1895 عن عمر يناهز 55 سنة. اكتنف الوفاة غموض كبير ذهب إلى حدِّ الظنِّ أنَّ الأمر مدبَّر سلفا من قبل فرنسا. توفي وهو في كامل تحضير ملفاته للمطالبة بممتلكاته التي استحوذت عليها الحكومة الفرنسية في الجزائر. شارك أصدقاؤه البلديون في مصاريف نقله إلى الجزائر ودفن بقسنطينة قرب والده

بعد اعتراض السلطة الاستعمارية دفنهما في قرية ولادتهما بقرية صدوق.

قرار العفو عن بومزراق

وصدر أخيرا قرار العفو عن الشيخ أحمد بومزراق المقراني في 23 جانفي 1904 وزملائه. سعِد به أيما سعادة وهنّأه الرسميون في كاليدونيا الجديدة. ذهب بومزراق ليبشر محمد بن عيسى بقرار العفو... لم يزر صديقه بن عيسى في بيته منذ أن قدم له العزاء في زوجته كلودين، كان عمر كلودين وقتئذ أربعة وأربعين سنة. توفيت وعمر ابنتها نوميا لم يتجاوز السبع سنوات.

دق بومزراق الباب...فتحت له نوميا، فرحت بقدومه وأذنت له بالدخول على أبيها. وجده ممددا على فراشه لا يقوى على الحركة. أراد أن يستجمع قواه للنهوض في حضرة بومزراق غير أن شلل أطرافه اليمنى حال دون تحقيق ذلك :"...إنه على حاله هذه منذ حوالي شهر،

فحصه الطبيب وأعطاه الدواء غير أن وضعه لا زال كما ترى !!". عاتب بومزراق نوميا لإخفائها حالة أبيها عنه وشعر بالذنب حياله "..هوّن عليك يا أخي بن عيسى، ستشفى بإذن الله...جئتك بخبر سار ويقين...لقد صدر في حقنا قرار العفو...سنعود يا بن عيسى إلى وطننا...سنعود." فاضت عيناه للخبر السعيد وأراد أن يظهر فرحته فلم يسعفه شلل فكه الأيمن التفوه بكلمة مفهومة.

حزن بومزراق على حال بن عيسى ولم تستطع نوميا شد عبرات أبيها وقامت تمسح دموعه وهي تردد "هون عليك يا أبي...هون عليك !!" غادر بومزراق وهو يحاور نوميا: "...اعتن بأبيك يا نوميا وأنا في خدمتك في أي أمر تحتاجينه. سأخبرك بتاريخ الإقلاع لاحقا!!". كان يكرر بومزراق زيارته لابن عيسى إلى أن حان موعد الإقلاع. مرت أربعة أشهر ولم يظهر أي تحسن على صحة بن عيسى وصار جليا أن حلم عودة

بن عيسى وابنته نوميا بدأ يتبدد يوما بعد يوم وأسِف بومزراق لحال صاحبه خاصة مع تأكيد الطبيب أن وضعه الصحي لا يسمح له بالتنقل.

كان موعد إبحار الباخرة يوم 18 ماي 1904، كان يوما كئيبا بالنسبة لنوميا. انهالت دموعها حرقة بمجرد دق بومزراق على باب بيتها. علمت أنه جاء ليودعهما. كان يوما صعبا امتزجت فيه مآسي مرض بن عيسى مع حرقة مغادرة بومزراق وعدد كبير من الجزائريين الجزيرة. غلبت العبرات بومزراق وزوجته التي صحبته هذه المرة في وداع بن عيسى ونوميا. خرج بعد أن قبَّل رأس بن عيسى وضم نوميا إلى صدره ضم الأب لابنته...

وقف على الباب وهو يمعن النظر في عيني بن عيسى الذي لم يعد يعبر عن مشاعره إلا بالدموع الساخنة. غادر بومزراق وزوجته وهو يوصي نوميا بالاعتناء بوالدها ولا يكاد يبين نصحه من شدة اختناق حلقه ...

غادر بومزراق الجزيرة التي مكث فيها أكثر من ثلاثين سنة رفقة زوجته الفرنسية "اوجيني لمارشوند" Eugénie Lamarchande وقد كانت قبل اعتقالها عاملة سابقة في النسيج في مدينة "روون" الفرنسية. عودةٌ خالطها الكثير من الغموض والخوف من المجهول. أين سيقيم؟ هل يعود إلى الجزائر مع زوجته الفرنسية؟ ما خبر زوجته الجزائرية وابنيه الذين تركهم يصارعون قهر الاستعمار في الجزائر؟ ليس لديه أدنى خبر عنهم...أحياء أم أموات؟؟

خرج سكان نوميا لتوديع بومزراق واصطفوا على جنبات الرصيف المؤدي إلى الميناء. صعد الباخرة "باسيفيك" Le Pacifique وهو يشير إليهم بالوداع.

انطلقت الباخرة من المرفأ نحو مارسيليا وقد عادت ذاكرة بومزراق وقد بلغ من العمر 76 سنة لتفيض على أشجانه صور جحيم النفي وتدمي جراحا لا زالت لم تندمل بعد رغم مرور ثلاثين سنة بأيامها ولياليها.

وصلت الباخرة إلى مارسيليا بعد شهر ونصف من الإقلاع في ظرف قياسي يبرز تطور قوة محركات البواخر مقارنة مع مثيلاتها في أواخر القرن الماضي.

وصل بومزراق مارسيليا ثم استقل سفينة أخرى إلى الجزائر والأمل يحذوه أن تطأ قدمه أرض بلاده التي أحبها وكان بها مُغرما وفارقها مُرغما.

كان له ما أراد وارتاحت نفسه إلى العودة إلى الأوطان، غير أن دوام الحال من المحال. باغت الموت بومزراق في الجزائر في 11 جويلية 1904 ودفن بمقبرة سيدي امحمد بالجزائر العاصمة. انتشر خبر وفاته في كاليدونيا بسرعة وحزَّ ذلك في نفس بن عيسى ونوميا. توفي بومزراق في السنة التي توفي فيها محمود سامي البارودي. كان لهما نفس مصير النفي إلى الجزر.

كانت جاكلين تضع مقاربة نفي الزعماء العرب مع واقع الجزائر كلما تحادثت مع نوميا وتقول أنَّ البارودي زعيم الثورة العُرابية نفاه الإنجليز على خلفية صراع أحمد

عرابي قائد هذه الثورة مع الخديوي توفيق سنة 1882، حُكِم عليه بالإعدام واستبدل الحكم نفيا إلى جزيرة سرنديب "سيريلانكا حاليا" وأقام مدة سبع عشرة سنة في عاصمتها "كولومبو" إلى أن عاد إلى مصر.

زواج نوميا

حافظت نوميا على قدر جد يسير من الثقافة العربية وانطبع ذلك في سلوكها ولباسها ولغة تعاملها بحكم ملازمتها لأبيها بن عيسى في حديثه وعمله ومعاملاته وحِلّه وترحاله. تقدّم لخطبتها فرانسوا بن سليمان ابن القايد أحمد بن الصّديق سنة 1905. كان القايد سليمان بن أحمد يحظى بمرتبة مميّزة بحكم قربه من إدارة المزارع العقابية. غير أنّ بن عيسى أسند أمر القبول لابنته نوميا. فهِم القايد أحمد إيحاءات بن عيسى.

كانت وفاة أمها كلودين قد مضى عليها أربعة عشر سنة. لازمت نوميا أباها... كانت رهن إشارته في كل

أوامره إلى أن أقعده المرض وترصده الموت وشل زمن القهر حركته وأخرس لسانه. فهمت بسرعة طلب أبيها فرفضت العرض دون تردد. لم يكن بوسعها ترك أبيها في هذه الحالة ولم يكترث هو الآخر لفراقها، لكن كانت تلك العبرات الساخنة التي يصعب إيقاف جرياناها كل ما تعلق بمصير ابنته توحي برغبة بن عيسى في أن يضمن لابنته ساعدا يعين ابنته على نوائب الدهر من بعده وظهرا يقيها شر الوحدة وخطر الاعتداء عليها أو على ممتلكاتها.

إرضاء لأبيها وسعيا منها للتخفيف من وطأة المخاوف التي باتت تشكل هاجسا يؤرق أباها، وافقت نوميا على الزواج من فرانسوا بشرط مكوث والدها معها في بيت الزوجية.

قبِل فرانسوا على مضض شرطها تحت تأثير والده الحاج سليمان بن أحمد الذي رأى في قرار نوميا صوابا يحمل معاني البر بالوالدين. تزوّجت نوميا ذات العشرين سنة

بمباركة شكلية كاثوليكية لأخوات سانت جوزيف لكيليني بحكم جنسيتها الفرنسية التي فرضها قانون مستعمرات جزر المحيط الهادي وسُجِّل العقد المدني في بلدية بوران. أما عقد القران الشرعي فتم بصيغته المعروفة وقرأ القرآن جماعة ورفع الشهود أكف الضراعة بالدعاء للزوجين. ذُبح الثور ونظِّم الزفاف في دار الحاج سليمان بن أحمد. اتسع البيت للمدعوين وضُرب الطبل ورقص الرجال في فناء البيت على وقع الأهازيج الجزائرية.

لم تكن لنوميا أي فكرة عدائية عن فرانسوا، غير أنه ظهر لها من خلال تصرفاته أن نضجا ينقصه في تفكيره ومعاملته. يبدو أن فكرة احتقار العائلة قد بدت ملامحها منذ الوهلة الأولى من الزواج. ارتفع ذات يوم صوت الحاج سليمان بن أحمد معاتبا ابنه فرانسوا وكان على مقربة من الحجرة التي جرى فيها الحوار: "...إنَّ الكلام الذي ظَلْتَ عليه مُردِّدًا بخصوص إنقاذك لنوميا

من كوخ قصديري ورفضك لبقاء أبيها المقعد بجوارنا، كلام غير مقبول ولا أقبل إعادة صدوره منك بعد اليوم. واعلم أن معروفا أسداه إلي بن عيسى عندما نُقلت من الجزائر لن أنساه أبدا وسأبقى محتفظا به في نفسي ما حييت ولا يقوم به إلا أصحاب المواقف...

...لا زلت له مدينا برقبتي لا بداري...لن أتركه يصارع الموت وحده بعد أن زوجتك ابنته الوحيدة مهما كانت الظروف...إنه في داري...في داري...هل فهمت؟؟".

طأطأ فرانسوا رأسه ولم يجرأ مواصلة الحديث مع أبيه الثائر وعمَّ الصمت الرهيب.

شاءت الأقدار أن تنعم نوميا بقربها من أبيها في بيت مجاور للحاج سليمان بن أحمد لمدة سنة كاملة من مرضه، سعدت بالمعاملة الكريمة لصاحب البيت وزوجته الباريسية إليزابيث إلى أن جاء يوم الوداع. بات الوضع الصحي لابن عيسى ينبأ بدنو أجله في جناح الظلام. استطردت نوميا في تجفيف عرقه وتبريد أطرافه ولا زالت

على تلك الحالة، تناوله الدواء مرّة وتبكي عليه أخرى وما فتئت ترسل على وجنتيها العبرة إثر العبرة حتّى مضى من الليل ثلثه. شدَّ بن عيسى على يد ابنته وفهمت من تمتماته وإيماءاته أنه يريد الحاج سليمان.

ترددت في مناداته في هذا الوقت من الليل، لكن مع إصراره غادرت البيت وأسرعت إلى بيت الحاج سليمان ودقَّت بابه دقا خفيفا. استجاب لدقها وعلم أن أمرا جللا حل بابن عيسى حينما وجدها باكية. فزع الحاج سليمان إلى بن عيسى فوجده في آخر لحظاته.

شد بن عيسى يد الحاج سليمان، فهِم من نظراته التي كان يوجهها نحو ابنته أنه يوصي بها خيرا ويرجو العناية بها من بعده.

انهارت نوميا أرضا وهي ترى يد أبيها تنفلت ببطء من يد الحاج سليمان. غادر بن عيسى هذه الدنيا في مشهد كئيب اختلجت فيه مرارة الفراق بحالة الاطمئنان التي غمرت قلب بن عيسى متيقنا أن مستقبل نوميا

محفوظا في دار الحاج سليمان ومات الرجل وهو متيقنٌ أن صاحبه لن يبخل عليها بحنانه ورأفته ومواساته ولن يتركها فريسة لغدر الزمان ونكد الغربة في جزيرة النفي.

حزنت نوميا على أبيها بن عيسى حزنا شديدا. دُفن في مقبرة المسلمين بنيساديو بالقرب من مقام سيدي مولاي البشير. هذا المقام الذي اتخذه الجزائريون المنفيون رمز بركة ووحدة ونقطة ترابط روحي بينهم وبين أهليهم في الجزائر وموسم "وعدة" تهفو إليها نفوسهم مرة كل سنة.

بعد إتمام مراسيم الدفن وصلاة الجنازة، وقف الحاج سليمان على رأس بن عيسى بعد أن سُجِّي في التراب:"...رحمك الله يا أخي يا بن عيسى، لست أنسى يوم اتهمني بعض رجال المقراني المنشقين بالعمالة للآغا محمد بوزيد بن أحمد. لن أنسى ما حييت ذلك اليوم الذي اقتادوني وتوسطتُ فيه ساحة الموت وجئتَ تفك عنقي من الحبل الذي لفّه المخبول "بن غريب"

على عنقي بعد صراع معه. كان يريد شنقي بدعوى أنه كان لي يد في تصفية أبنائه من قبل الآغا محمد بوزيد...يشهد الله أني لم أخن أحدا...و لو كنت خائنا لما أنا هنا اليوم غريبا منفيا عن أهلي وبلدي".

فهمَت نوميا بعد مرور أيام من الوفاة أن أباها كان صاحب نظر ثاقب ومزاج معتدل وقد أنقذه من موت تعسفي لم يكن للزبانية أي دليل مادي يثبت صحة الادعاء وكل ذلك في غياب الشيخ بومزراق المقراني الذي لم يكن على دراية بترصد بن غريب للحاج أحمد. وفهِمَت بعدها أن قرب الحاج سليمان بن أحمد الآن من إدارة المحتل في كاليدونيا الجديدة ليس إلا حماية له وانتقاما ممن حاولوا اغتياله وهم يشاركونه النفي في الجزيرة.

بدأت جراح فراق الأب تندمل شيئا فشيئا جراء المعاملة الطيبة التي كانت تتلقاها من الحاج سليمان رغم

سذاجة فرانسوا وترحاله المتواصل بين فرنسا والجزيرة. كانت علاقة باردة بينه وبين كل عناصر العائلة.

نشأ فرانسوا على أعتاب ديار المعمِّرين الفرنسيين وتربى مع أطفالهم في أحضان البرجوازية الزائفة. تربت في نفسه عقدة النقص ورفض كل مظاهر البساطة التي تمتع بها منذ صغره في بيته. رفض أوامر الأب واعتبرها تسلطا أبويا مفرطا. أحب الحرية في التصرف والتملص من فضيلة البر وكبر على ذلك رغم إنكار والديه لذلك حتى لصقت به صفة التمرد على القيم في شبابه.

بعد سنة من وفاة والدها، وُلد هُنري. بميلاده انجلت من على قلبها ما بقي من كآبة العيش مع فرانسوا. في غياب زوجها وتفاديا لكل اشتباك بينها وبينه، كانت تنادي ابنها هنري بابن عيسى إكراما لذاكرة أبيها.

رافقت نشأته تشاحنا وتشنجا من جميع أطراف العائلة، كان باديا أن كِبرَ فرانسوا وعناده هو سبب تعكر الأمزجة داخل البيت. لم تكن تنجلي تلك السُّحب

الراعدة والعواصف الناسفة ويحل الهدوء والصفاء إلا بسفره إلى فرنسا.

دخل هُنري الصف النظامي. كانت تشيعه أُمُّه نوميا ببصرها حتى يتوارى عن نظرها وعند رجوعه، يلجأ إلى أحضانها كما تلجأ الطيور اللاجئة. كان ذكيا وسريعَ فهمٍ ومهذبا. كان يجد في الذهاب لمزرعة جده بن عيسى متعة وهو يسقي أشجار الليمون ويجري متخفيا بين سيقان الذرة المورقة ويصنع من مخلفات الخشب والحديد ما يداعب أنامله في ظل النخيل المتوسط الارتفاع.

نخيل الجزائر في كاليدونيا

يعود أصل النخيل في كاليدونيا الجديدة إلى صحراء الجزائر. وصلت نويات البلح بعدما كان غذاء المرحلين طيلة رحلتهم البحرية الطويلة. استقدم بعض ممن كانوا يمتلكون واحات النخيل كميات معتبرة من التمر، وهم أهل ممتلكات ويجيدون حرفة زراعة النخل والاعتناء به. أصل النخيل في "بومونت" هو تمر المُرحل معمر من أولاد زكري، القبيلة المنتفضة في منطقة "الزِّيبان". أمَّا أصلها في "نيساديو" و"بوغن" فيعود إلى السعيد بن تومي الشيخ الإباضي من ناحية "مزاب". غُرِس النخيل فيما بعد لإظهار الانتماء القبلي وإبقاء الرابطة العرقية بالجزائر والاستئناس بديكور كان باديا لأكثرهم أن العودة إليها من رابع المستحيلات. يغلب على قول الكاناك: "عندما ترى النخيل...هذا يعني أن العرب القدامى مرُّوا من هنا..."

لم يكن بسط الواحات من قبيل الصدف أو الاعتباط، بل كان بناء على ضرورة توفير رطوبة يقتضيها التوازن المناخي قرب المناجم التي كانت في حد ذاتها مصدرًا تنبعث منه الحرارة.

يوميات نوميا و هُنري

كان أكثر ما يحب الحاج سليمان "الكسكسي" الذي كانت تحضره نوميا. تعلَّمت إعداده من أبيها بن عيسى الذي كان يصف لها كيفية تحضيره، مستحضرا ما كان يشاهده من إعداد أمه وزوجته الجزائرية. كان يشم في حباته حبَّ الجزائر ويتلذذ بذوقه ونفحات تحضيره باليقطين والفول والفلفل الحار التي كانت كلها من نتاج المزرعة التي كانت تشرف عليها نوميا. حليب الماعز لم يكن يغادر سفرة الحاج سليمان وغالبا ما كان عبير الشاي وكسرة السميد يجوب أرجاء البيت ويرحل بذاكرة الحاج سليمان إلى الجزائر.

في غفلة من أمر نوميا وهي تسقي الزرع، صعد هُنري نُخيلة وهو صاحب سبعٍ، فلما بلغ منتهاها أصابه الدوار فسقط أرضا وأصابته أداة فلاحية في معصمه إصابة بالغة. فزعت نوميا لصراخه، ولحقت به وهو في حالة حرجة. حملته بين ذراعيها وتوجهت به تلقاء منزلها. حمله الحاج سليمان على ظهر حصانه وسابق الريح في بلوغ المصحة. لحقت نوميا جريا بعد نصف ساعة. قُدّمت له الإسعافات الضرورية وضُمِّدَ جرحه وعادا به إلى البيت.

ساءت حالته بعد خمسة أيام وسرعان ما رجعا به إلى العيادة. تعفن جرحه وانتفخ ذراعه. كان الأمر يتعلق بكسر وبات من الضروري أن يقيم في المستشفى لمتابعة علاجه عن قرب والتكفل بالكسر. كان يُخشى عليه من البتر. مكث هُنري عشرين يوما حتى خرج من دائرة الخطر.

غادر هُنري رفقة نوميا العيادة الطبية وسُلِّمت لها شهادة طبية وضُرب له موعد بعد أسبوعين لفك جبيرته وإعادة تأهيل ذراعه ومتابعة علاج جرحه. بعد معافاته تماما، رجع فرانسوا إلى الجزيرة واستمع إلى تفاصيل الحادثة ليستقر في ذهنه أن إهمال نوميا هو الذي أدّى به إلى السقوط من النخلة.

خلال عامين بعد حادثة سقوط هُنري، وقعت أحداث آلمت نوميا: وفاة الحاج سليمان في وباء الطاعون الذي وجد جسمه قد أضعفه المرض وأنهكه تعب ثمانين حولا وسفرُ هُنري مع أبيه فرانسوا إلى فرنسا سنة 1916 وعمره تسع سنوات لقضاء عطلة الصيف.

يبدو أن خطة فرانسوا قد بدأت تأتي أكلها الخبيث بمجرد وفاة والده. انتقاله مع ابنه هُنري وتحضير التحاق أمه إليزابيث التي باتت لا تكاد تعلم من العلم شيئا لخَرف أصابها. لتبقى آخر مرحلة وهي طلاقه من نوميا وبيع ممتلكات أبيه الحاج سليمان.

دارت الأيّام غير أنها لم تنل من عزيمة نوميا وقوامها في خدمة الأرض وبيع حبات الذرة وجبن الماعز على قارعة الميناء. غابت عنها أخبار هُنري غيابا تاما وبدأت علامات الإرهاق والاضطراب تظهر على نفسيتها.

تغيّرت ملامح وجهها بفعل معارك خاسرة مع زوجها في إقناعه بوجودها، أفضت في الأخير باتهامها بالجنون. كان الصراخ وسيلتها الوحيدة في التعبير عن امتعاضها من وضع المستعمرة. لم يكن بد من زوجها إلاّ أن يطلب الطلاق من المحكمة بدعوى الجنون.

لعلَّ الجنون الذي ذكره فرانسوا هو تكرار ذهاب نوميا صبيحة كل يوم لمقر البلدية لإرغام فرانسوا لإعادة ابنها. كان بكاؤها على أعتاب المخفر يدمي القلوب وهي تستعطف الأعوان. حافية القدمين رثَّة الثياب بالية الملامح تعلوها صفرة البؤس وحمرة الحمّى.

"أرجوكم...ساعدوني على عودة ابني. لم أطق القعود هنا من دونه. دفعنا كل مستحقاتنا من الضرائب. مات

والداي وخطف زوجي مني ابني ... ليست لي أية رغبة في البقاء هنا من دونه ...أرجوكم..من فضلكم !

"اذهبي من هنا أيتها المجنونة وإلاَّ رميناكِ في السجن !

عبارات جارحة وقاسية لطالما سمعتها نوميا حتّى ألفتها. كان عدم الرضا البادي في صراخها الهستيري يستوقف كل من يمر بالطريق.

مقهى المقراني

عادة ما كان عُمّار مقهى المقراني المقابل للمخفر من الجزائريين يتابعون المشهد اليومي بكل أسف ودون أدنى ردة فعل. لم يعد لبعضهم من رابط جزائري إلاّ لفافة الرأس وقوامة البرانس. أمّا أكثرهم فلا تستطيع تمييزهم عن الأوروبيين في لباسهم وحديثهم وهم يقبعون على كراسي خشبية وتعلو رؤوسهم غيمة دخان السجائر والشيشة.

تغيّر المشهدُ هذه المرّة. جاءت نوميا كعادتها، تشكو حالها لأعوان الخفارة، تُطرَد ثم تسقط أرضا جرّاء ركلة الضابط. لملمَت عباءتها الرثّة وهي تبكي وتناولت قبعتها دون أن تنفضها من غبار الأرض. توجَّت إلى مقهى المقراني ووقفت على الباب تنظر بعيون دامعة وصارخة في وجه القاعدين الذين أوجسوا منها خِيفة:

"أفٍّ لكم أيها الجبناء العاطلين. أليس منكم رجل رشيد...ألم تملّوا من القعود على كراسي الذل يا أشباه الرِّجال "!

تعالت ضحكات جنود الخفارة وهي ترمي أصحاب المقهى بوابل من السّب والشتم. لم يجرؤ أحد على الرد عليها ولم يجدوا من حيلة إلا الشكوى إلى زوجها الذي قدم لاستكمال إجراءات الطلاق التي حضَّر لنجاحها تحضيرا جيدا.

تنفَّست نوميا الصعداء وهي تصب جام غضبها في آذان الأجساد القابعة على مقاعد المقهى ثمَّ غادرت

بخطى متثاقلة مستعينة بارتكاز يدها على الحائط وهي تنوح وتندب حظ ذهاب المروءة وجُور الزوج وقمع ضابط الخفارة لها ووفاة بومزراق في الجزائر بعد رحيله من الجزيرة.

عندما قدم ذات يوم "جاك دير" في دراسة ميدانية لحصون كاليدونيا العقابية، زار هذا المقهى الذي يعتبر مكان تلاقي الجزائريين وصلاتهم جماعة فيه. أُشير له بوجود الشيخ بومزراق يوما داخل المقهى. وصف صلاتهم بقوله: ".. يتوجهون واقفين نحو مكة البعيدة...يركعون...يهوون إلى الأرض ليلامسوا الأرض بجباههم ...يختمون صلاتهم بهمهمات وتمتمات لم أدرك منها إلا ...الله...". يضيف في سياق حوار مع صديق له: "...بومزراق المقراني...بطل الجزائر...رأيت أخاه بأم عيناي وأذكر مقاومته الشديدة ونهايته البطولية...لقد سقط ووجهه صوب الأرض مقبِّلا في

آخر رمق تلك الأرض الإفريقية التي أحبها حتى الموت... !"

وقف مترددا على باب المقهى ورأى على محيَّا بومزراق هيبة ووقارا. لاحظ أن كل من يدخل المقهى من الجزائريين يذهب إليه يسلم عليه ويصافحه.

لم يكن بومزراق متميزا عن باقي الجزائريين في ثيابه. همس جاك دير لمرافقة: " أذكر جيدا أن بومزراق كان يربط، بكل سخرية، صليب "فيلق الشرف" على ذيل حصانه..."

"ادخل...اقترب...مرحبا بك" يقول بومزراق المقراني لجاك دير وهو واقف على عتبة المقهى. بعد التحية والسلام وتعريف جاك دير بنفسه إلى بومزراق، تبادلا أطراف الحديث مطولا. ولّى جاك دير وجهه شطر الطريق الخلفي عبر نوافذ المقهى وقد غلب عليه البياض الناصع، فقال: "أظنني في الجزائر...فعلا أنت في بلادك

يا شيخ بومزراق !!". أجاب: "لا !!..هذه ليست بلادي ....!!

كان المقهى يؤدي إلى ساحة جوز الهند في نوميا ويتوسطها كشك تتعالى فيه باستمرار الموسيقى الأوروبية وغالبا ما يمر على جانبها بعض الفرسان وبعض العربات الانجليزية تجرها خيول راقية.

زواجٌ بعد طلاق

بُلِّغت نوميا قرار الطلاق فتلاشت كل قواها إلا من حرصها على طلب حضانة ابنها. استلمت آخر رسالة من ابنها هُنري 1919، يسلم فيها عليها ويخبرها بسروره برسالتها ويصف لها فيها أجواء دخوله المدرسي وتعرُّفه على أصدقائه الجدد. احتفظت برسالته وصورته وهو يحيي أعياد الميلاد في جوف محفظة الوثائق ولم تكد تمنع نفسها من إعادة قراءة رسالته وتقبيل صورته كلما اعتزلت في بيتها بعد مشقة النهار. كانت حرقة البكاء على ابنها لا تفارقها حتى في نومها. بعد استلامها قرار إخلاء المسكن العائلي من المحضر القضائي، رجعت نوميا إلى بيت أبيها القصديري التي كانت قد أقرضته بعد زواجها إلى إحدى جاراتها واستعادته منها ثم رجعت إلى مزرعتها لتضمن قوتها .

كان قرار الطلاق إيذانا لفرانسوا المقيم مع ابنه وأمه بقطع كل أواصر العلاقة بين هُنري ونوميا. لم تتلقى أي رد من ابنها على رسائلها العديدة. بات مؤكدا لديها أن فرانسوا قد نجح في إبعاده عنها إلى الأبد. كل هذا لم يزعزع من عزيمتها في استنهاض همتها للقيام بشؤون بيتها ومزرعتها.

في الرابع والثلاثين من عمرها، تزوجت من "عبود" من أصول يمنية. كان قائد سفينة وعارفا بمعابر البحر ومسالك الجزر.

رآها أول مرة على مرفأ الميناء في مدينة نوميا تبيع حبات الذرة وجبن الماعز وبعض الفواكه التي كانت تنتجها مزرعتها. ملامح وجهها يظهر همَّةً ووقارا في طريقة كلامها وبيعها. لم يكن من عادته شراء الذرة، لكن كانت فرصته هذه المرَّة للحديث معها والتعرف أكثر عليها. ازداد تعلقه بها حين أدرك أنها تتحدث أحيانا بالعربية وأنها تقاسمه نفس البلاء الذي حل بأبيه حين

صدر في حقه قرار النفي هو الآخر إلى جزيرة "رودس" سنة 1891 من قبل الباب العالي. سأل عنها وعلم بمجريات حياتها وطلاقها ومآسيها في هذه الحياة وأصولها. أُعجب بها وعرض عليها الزواج في عودته من رحلته الموالية. وجدت نوميا في شخصه احتراما وأنسا، رفضت في بادئ الأمر العرض متعللة تارة ببحثها عن ولدها وتارة بعدم تكرار كابوس الزواج الذي نغَّص عليها صفو حياتها غير أنها قبلت في الأخير عندما لمست من عبود حبا صادقا واحتراما كبيرا لشخصها واستعداده الكبير للبحث عن ابنها وتقصي أخبار إقامته. كم كانت غبطتها حينما عرض عليها زيارة الجزائر حينما يتيسر له ذلك!!

تزوجت نوميا من عبود بعد سنتين من طلاقها من فرانسوا وشهد زواجهما بعض أصدقاء أبيها بن عيسى ثم رافقته في رحلاته البحرية بحكم وظيفته لتستقر مؤقتا

في مدن جميلة مثل السويس، سيدني، كوالالمبور، جدة، صنعاء،...

نوميا تغادر الجزيرة

في سنة 1920، غادرت نوميا جزيرة كاليدونيا الجديدة مستقلة الباخرة. خالجها شعور المرارة وهي تترك وراء ظهرها والدها وأمها والحاج سليمان يتوسدون أديم هذه الجزيرة الموحشة. خرجت من بيتها باكية وهي تحلق ببصرها في زواياه المظلمة. كانت أشعة الشمس تتسرب من ثقوب السقف والجدار مخترقة سواد غرفتها. لم يبق فيه إلاّ سرير كانت ترمي عليها جسدها المُرهق حين عودتها من الحقل أو من الميناء. أفرغت مخازنها من التين المجفف والتمر ووزعتها وزوجها على المارة وتركت الكثير منها لجارتها الكاناكية التي فقدت زوجها الجزائري. تركت لها بيتها ومزرعتها وماعزها. تلك المرأة

الكاناكية...كانت تبادلها الأنس وتزورها وتخفف عنها وطأة الحياة المريرة وتساعدها في مزرعتها.

حملت حقيبتها وألقت ببصرها على أشجار مزرعتها اليانعة وودَّعت كل شيء فيها. تركت الحقيبة تسقط من يدها وانطلقت مسرعة مجهشة بالبكاء إلى النخلة في زاوية الحقل.

بدأت تقبلها تقبيل الأم لابنتها وتضمها إلى صدرها مغلقة عينيها الدامعتين. كانت لحظة حميمية وقوية لم يستطع زوجها شد عبراته الساخنة. ذهب إليها محاولا جذبها لكن عناقها النخلة الصغيرة كان شديدا.

كانت تجذب بمناخيرها رائحة الجذع. كانت تتذكر زمن الحب الذي كانت تتقاسمه مع والديها ولعل شريط ذكرياتها أظهر لها لحظة أنين ابنها هُنري حينما سقط من على جذعها المائل.

كان عبود يتحاشى أي حديث يلهب في نفس نوميا زيارة المقبرة. كان يستغفلها بقرب موعد انطلاق

الباخرة. كان يعلم أن الأمر سيكون جللا. غادرا المنطقة الزراعية وتجاوزا الطريق الرئيسي لمقبرة نيساديو، تنفس عبود الصعداء وجال في نفسه أنه كسب معركة تعفيه من رؤية زوجته وهي تعفر وجهها في تربة قبر والدها بن عيسى وأمها كلودين وما يصحب ذلك اللقاء من انهيار نفسي ...ما إن انتصفت بهما المسافة اتجاه الميناء حتى استدارت صوب طريق ثانوي بين الحقول الزراعية يؤدي إلى نيساديو. "سأودع والديَّ يا عبود !!" ...خسر عبود المعركة.

دخلت المقبرة، سلمت على أهلها...أسرعت إلى قبر والدها بن عيسى تقبل أحجاره تارة وتمسح تارة بيدها المبللة بالدموع شاهد القبر "هنا يرقد المرحوم محمد بن عيسى المتوفى سنة 1906.

وتنتقل إلى القبر المجاور "هنا ترقد المرحومة كلودين زوجة محمد بن عيسى رحمها الله المتوفية سنة 1892" التي أسلمت في آخر عمرها وكم كانا حريصين أن يدفنا

جنبا إلى جنب !! تداعت أشجان نوميا كذلك على لحد الحاج سليمان بن أحمد حين استرجعت في ذهنها مواقف البطولة التي خصها بها ضد جبروت ابنه فرانسوا. أفقدها الوعي هدوء المقبرة وصمت موتى المسلمين في جزيرة الغربة والنفي. لم تستفق إلاّ على أثر الماء البارد الذي رش به عبود وجهها الساخن. كتابة أخرى "...يرقد هنا المرحوم علي بن قالوزة" كان في الجزائر برتبة "خليفة قايد"، حكم عليه في محكمة قسنطينة سنة 1873 هو أول متوفى جزائري من ثوار 1871.

نظرةُ وداعٍ أخيرة على كل موتى المسلمين وكأنها زيارة لن تتكرر أبدا. رفعت نوميا وعبود أكف الضراعة والدعاء لهم جميعا وتليا بعيون باكية سورة الفاتحة.

غادرت نوميا الجزيرة الكاليدونية في اتجاه مدينة زوجها عبود في صنعاء مرورا بأستراليا وماليزيا ثم الهند. أخذت معها رسائلها ومتاعها في حقيبتها اليدوية السوداء

وحملت متاعبها في قلبها وعلى وجهها الذي يحمل قسمات وسمرة أبيها بن عيسى.

بعد قضاء عشر سنوات في اليمن أدت خلال هذه المدة مناسك الحج في البقاع المقدسة ثم انتقلت إلى مدينة براست الفرنسية. ليس غريبا عنها اسم هذه المدينة الساحلية. لازالت آهات والدها بن عيسى تنطلق من ظلمة حصن "كيلرن" المتربع على عرش الطغيان. لا زالت كلمات بن عيسى عن قساوته تتردد في آذان نوميا وعن معاناته خلال رحلة الموت التي كانت تنطلق تحت أشرعة تلك البواخر. عمل زوجها في النقل البحري استقر في براست لينهي بهذه المحطة آخر مشواره المهني. تناهى إلى علمها عندما كانت مقيمة في براست وفاة محمد بن صالح بلبدرون سنة 1934 ودفن في مقبرة بوراي. كان شابا يافعا وصديقا وفيا للعائلة، وفد إلى الجزيرة مُرحَّلا سنة 1894 وعمره عشرين عاما وهو من

قسنطينة. عرفته نوميا بتفانيه في مساعدة أبيها في أعمال المزرعة.

مرت عشرون سنة على مغادرة نوميا لكاليدونيا الجديدة، استنفذت فيها هي وزوجها كل مخزونهما من الآمال والأماني لمعرفة مصير ابنها هُنري. تعرفت على صديقة فرنسية اسمها سوزان، أودعت عندها أسرارها ومآسيها واستأنست بجوارها في براست. استمرت صداقتهما حتى بعد رحيل سوزان إلى الجزائر في بداية الأربعينيات مرافقة لزوجها. ظلَّت معها في اتصال بريدي دائم وبادلتها صور انتقالها من مدينة إلى أخرى.

نوميا في العين الصفراء

ذات صباح وهي منهمكة في شؤون البيت، دق ساعي البريد وسلمها رسالة...جففت يديها من أثر ماء الغسيل ثم فتحتها على عجل فإذا بها دعوة من صديقتها سوزان تسلم عليها وتدعوها فيها لزيارتها إلى

مدينة العين الصفراء. رفعت نوميا رأسها وأطرقت تستعيد ذاكرتها وتستجدي من شريط ذكرياتها حنين حكايات أبيها بن عيسى عن قصور هذه المنطقة. لم يكن اسم هذه المدينة غريبا عنها فلطالما كان بن عيسى يحدثها عن صباه في بساتين قصورها وضواحيها وعن مروره بها في ترحاله بين الصحراء و التل. ترسخ في ذهنها وهي التي لم تزرها أبدا أنها مدينة عريقة بتاريخها وقصورها وثقافة أهلها. استجابت لدعوتها وقررت الذهاب إليها رفقة زوجها عبود. قبل يومين من الإقلاع اعتذر عبود لعدم مرافقتها لأمر مانع لكنه وفر لها كل مستلزمات الرحلة على أمل أن يلتحق بها مستقبلا. لم يكن يريد إهمال موعد فحوصاته الطبية والمخبرية العادية.

دخلت الجزائر لأول مرة عبر ميناء وهران ثم واصلت سفرها إلى العين الصفراء وهي تقطع مروج "الحلفاء" وكان عمرها 61 سنة عن طريق القطار في صيف

1946. وصلت المحطة وكانت الساعة الدائرية المعلقة في مبناها تشير إلى تمام منتصف الليل.

كانت بها حركة متسارعة لأفراد من الجيش يستعدون للرحيل وأشخاص يرتدون ملابس عربية لسان حالهم واصطفافهم يقول إنهم في انتظار شخصية هامة ستنزل من القطار. بِشرتهم ونظرتهم وهندامهم لا يختلف كثيرا عن الجزائريين الذين خلفتهم وراءها في كاليدونيا ووهران. وسط ضجيج المارة ومحرك القطار ورائحة الدخان المنبعثة من أفواه القابعين فوق أمتعتهم على رصيف المحطة، اتجهَت نوميا صوب مصلحة الاستعلامات لتسأل عن فندق في المدينة. لم تُرد إعلام صديقتها بمجيئها رفعا لحرج الانتظار والاستقبال. كانت تريد أن تجعلها مفاجئة.

كان يصاحب صوتها الخافت سعال متقطع لم يفارقها طول مدة السفر. لم يكن الفندق بعيدا. بعدما أثنت على صاحب التوجيه، حملت نوميا متاعها وانحدرت

نحو الجهة الجنوبية من محطة القطار يحذوها شوق الراحة من عناء السفر. دخلت "فندق فرنسا الكبير" Grand Hôtel de France وقد بدا على محياها التعب والإرهاق. قامت بإجراءات التسجيل والحجز، استلمت مفتاح غرفتها وتابعت سيرها المتثاقل على أخشاب أرضية وسلالم الفندق الهادئ. غاصت نوميا في نومها ولم تستفق إلا على أشعة الشمس وقد اخترقت ستائر الغرفة لتصيب جفونها.

استيقظت من سباتها وسارعت إلى فتح باب شرفة غرفتها المطلة على الساحة. استجمعت قواها وأخذت نفسا عميقا من صفاء هواء الصباح. لمحت نوميا جبل "مكثر" شامخا في زرقته وتتقدمه كثبان رملية ذهبية اللون.

حينما لمحت على يمين شرفة غرفتها وعلى بعض أمتار كنيسة وسط المدينة عادت نوميا بذاكرتها إلى كنيسة سانت جوزيف لكيليني في بوراي وأيقنت أنها شديدة

الشبه بها في عمارتها وارتفاعها وتوسطها المدينة وأن كل مظاهر الحياة والمحلات ولباس الرجال من مختلف الجنسيات لا يوحي بأي فرق بين سكان هذه البلدة وسكان كاليدونيا الجديدة.

غادرت نوميا الفندق في رحلة اكتشاف موجزة قبل أن يحين موعد لقائها بصديقتها وفضلت التوجه يمين الفندق نحو قلب المدينة. اقتربت من الكنيسة وصادف دنوها من جدارها أحد المرشدين السياحيين يشرح لبعض الزوار تاريخ المدينة ويشير إلى قطعة حديدية تظهر مستوى مياه الفيضانات التي اجتاحت وسط المدينة سنة 1904 وراح ضحيتها عدد من الجزائريين والأوروبيين وانهارت تحت وقع أمواج الوادي مساكن ومحلات تجارية. استطرد في حديثه عن كاتبة رحّالة اسمها إيزابيل إيبرهارت التي كانت تسكن قرب الكنيسة وهوى عليها المنزل الذي كانت تؤجره بعدما عادت لتنقذ مخطوطاتها ومذكراتها. لكن الكل أصبح تحت

الأنقاض."...لقد قدِمت فرنسا إلى هذه البقعة من إفريقيا وقد وجدت أهلها يندثرون بفعل الجهل والمجاعة والأمراض....أنظروا الآن أليست المدينة مثل ضاحية باريس؟ لقد تعلم أطفالها القراءة والكتابة وسكنوا الكثير منهم المنازل بدل الخيام وأكواخ الطوب. لقد تحضر الجميع ولا أشك أنهم لن ينكروا صنيع فرنسا يوما ما!!." على هذه الأحكام غادرت نوميا موكب السياح دون أن تظهر شعورها تجاه المستعمر الفرنسي. أخرجت من حقيبتها رسالة صديقتها ولم تلبث أن تسأل عن عنوانها في "شارع فرنسا" الذي يتوسط المدينة. تعرفت على منزل سوزان بسهولة. دقت الباب واستقبلتها صديقتها بابتهاج كبير.

لمحت سوزان مظاهر التعب على وجهها وشد انتباهها السعال الحاد. اقترحت على نوميا أخذ قسط من الراحة في صالة الضيوف وقدمت لها عصيرا ريثما تنهي إعداد وجبة الغداء. تبادلا بمشقة أطراف الحديث ولم يكن من

سبيل الآن بعد تناول الغذاء إلا التوجه إلى "عيادة الأهالي" لفحص حالتها الصحية. يبدو أن الأمر يتعلق بعدوى يحتمل أن يكون مصدرها من ميناء وهران أو أثناء الرحلة في القطار. رافقت سوزان نوميا إلى مصلحة الاستعجالات بعيادة "الملازم ليترو".Lieutenant Lutrot فحص الطبيب الضابط حالتها الحرجة فحصًا سريعا دون مراعاة لتفاصيل الملف الإداري...كانت القاعة غاصة بالمرضى. من يفترش الأرض أكثر ممن لهم الحظ في سرير.

كان يُترك إتمام إجراءات الهوية والبيانات الشخصية للممرضين. المسألة أصبحت تأخذ منحنى الوباء في المدينة. حُوِّلت نوميا إلى مصلحة الأمراض الصدرية في جناح الأوروبيين وغادرت سوزان المصلحة بعد وعدها بزيارتها مساء. حينما خرجت نوميا من حالتها الطارئة وزالت عنها حالة الاختناق، بدأت تتعرف أكثر على من حولها وعاد تنفسها أحسن مما كان عليه. لم يكن

الأمر مَرَضا معديا بل مجرد التهاب رئوي حاد. دخل طبيب إلى المصلحة في اليوم الموالي في زيارة روتينية للمرضى. بدا لها من ملامحه أنها صادفته وربما تعرفه. أين رأته؟...أين صادفته؟ بقي ذلك لغزًا حاوَلت طوال ليلها حلَّه. غلبت على عينها أن وجه شبه فقط لا زال يربطها بابنها الذي فراقت رؤيته في كاليدونيا لكن قلبها يحدثها بصدق شعورها نحو ذاكرتها التي لم ينل منها النسيان.

في صبيحة اليوم الموالي، عمد إليها الممرض بلحاج جلول بن العربي:" أرى علامات الشفاء بادية عليك سيدتي !!". "شكرا سيدي، أنا بخير والحمد لله." استحسَنت نشاطَه وتفانيه ورشاقته في مقابلة المرضى وحديثه الممتع معهم.

سمعت من ممرضة فرنسية تقول لزميلتها عندما غادر الممرض الغرفة إلى الغرفة المقابلة "لقد ازداد نشاطه

وتفانيه منذ أن كرَّمه الحاكم العام بميدالية فضية لمكافحة الأوبئة وشهادة فارس الصحة العمومية.."

"...فعلا يستحق ذلك التتويج تقول زميلتها...لقد أبلى السيد بلحاج البلاء الحسن سنة 1945 بمساهمته النوعية في مكافحة مرض الطاعون الذي ضرب المنطقة".

كانت تتردد عليها الآنسة بن سالم عودة الأغواطية بالزيارة اليومية. رغم أنها كانت مولدة في مصلحة الأمومة والتي قدمت إليها في سنة 1946، كانت تزورها مساء كل يوم حين تود مغادرة المستشفى نحو بيتها في وسط المدينة.

"سيدتي...اسمحي لي أن أسألك؟..."..."تفضلي سيدتي !!" تجيب إحدى الممرضات من الأخوات الراهبات..."وددت أن أسالك عن الطبيب الذي قدم يوم أمس". ذلك طبيب المداومة، لا يعمل اليوم في المستشفى. إنه يوم راحته.". هل بإمكاني معرفة اسمه؟ ذلك الدكتور هُنري". غشي نوميا حالة من الحيرة،

اختلطت بها ريبة احتمال..."قد يكون هذا هو ابني هُنري !! "...نفس الاسم...نفس بعض الملامح : استدارةُ رأسِه وسمرةٌ دافئةٌ في وجهه، لكن ماذا يفعل هنا.!! يبدو أن الأمر فيه تشابه فقط، بدا لها أنه هو فعلا وتغيُّر ملامح الوجه والجسم أمر طبيعي مادام قد أخذ ينحدر مع السنين في منعرجات عقده الرابع. ازدادت سرعة خفقان قلب نوميا وتسارع شهيقها وزفيرها..."هل أنت بخير سيدة نومي؟ لم تصدر نوميا أي رد على الممرضة لدخولها في شبه فقدان للوعي...

اضطرت الممرضة أن تعيد ضبط جريان المحلول المعلق على سريرها والمغروس في ذراعها وتعيد قياس ضغطها ونبض قلبها...خلدت نوميا إلى النوم. واستفاقت على صوت السيدة مشرق رحمة موزعة الوجبات: "الغذاء جاهز !!...من يأكل...؟...". يرافق كلامها اللطيف قرع خفيف ومتقطع لآنية قديمة تضم تحت غطائها المتحرك شيئا من البطاطا المهروسة. بصوت هادئ

ومحتشم "أريد ماءً فقط سيدتي"...بلَّلت شفتيها وحلقها واكتفت بشكرها.

إنه موعد زيارة سوزان لها. اطمأنت على حالها رغم أنها رأت في وجهها صفرة غير معهودة. "أرجوكِ صديقتي سوزان، أريد أن تسدي إليَّ معروفا"..."بالفرح والسرور أنا رهن إشارتك"...ناولَتها مفتاح غرفتها بنزل "فندق فرنسا الكبير" أرجو أن تأتيني بمحفظتي ...تجيدينها في أعلى رف من الخزانة. "هل من خطب نوميا...؟" لا...لا...فقط بعض الوثائق أردت الاطلاع عليها."

ودَّعت صورته منذ ما يفوق ثلاثين سنة وهو ابن تسع وها هي اليوم تحاول أن تجد مقاربات للملامح التي تأمَّلت سرها الليلة الماضية مع ذكريات لم تمحها أمطار الزمن الغابر.

"دكتور هُنري !!...مريضة في قسم الأمراض الصدرية تطلب لقاءك !!...لقد بحثَت عنك البارحة". "..هل تريد منِّي شيئا؟؟". "لست أدري دكتور...تريد فقط

لقاءك..". "صباح الخير سيدتي...يبدو أنك بخير". لم تستطع الرد على الطبيب ولصقت الكلمات في حنجرتها. وقف حائرا من سكوتها و اغرورقت عيناها التي صارت تنظر باضطراب في التنفس وخفقان القلب إلى معصم الطبيب. طلب الطبيب من الممرضة أن تحضر له ملفها الطبي. وبدأ هو الآخر ينظر بشغف إليها وتعجب وتبادر إليه أنه سبق له رؤية هذه المرأة من قبل. "إنه اسمي...نوميا بن عيسى" و أنت "هُنري بن سليمان" أليس كذلك؟ "...فعلا سيدتي..." أنا دكتور هُنري بن سليمان.." و أنا أمك نوميا". لم يكد يصدق. كانت صدمة اللقاء أقوى من أن يركز في تفاصيل وجهها. بادرت بمد ذراعيها لمعانقته باكية وضمه إلى صدرها. أخذت بيده وهي تمرر كفها عليها "...هل تذكر هذا الجرح...إنه أثر سقوطك من النخلة في كاليدونيا الجديدة". تناولت بسرعة حقيبتها لتخرج له صورته ورسالته التي بعث بها إليها في سنة 1919

وأظهرت له شهادته الطبية التي تؤرخ لإصابته في سنة 1914.

سألته عن سبب انقطاع أخباره فهدّأ من روعها وأجهش بالبكاء على صدرها وعمَّت الغرفة حالة من التأثر والتعاطف لهذا الموقف. قال وهو يذرف دموع حرقة الفراق: "أُكرهتُ أمِّي على مغادرتكِ وعلى نسيانك. حاولت جاهدًا أن أصلكِ أو أتواصل بك لكن دون جدوى. عشت حياة كئيبة من دونك. لن أسامح والدي، كان هو السبب في هذا الفراق المرير..." .

لاحظ هنري أن النحافة قد غيرت من ملامحها وداج ماء جمالها وتبددت استدارة وجهها وارتخى خدّاها وبدأ انحناء ظهرها يوحي بتأثره من حمل أكياس الذرة على أكتافها طيلة ثلاثة عقود من البؤس والقهر والشقاء في جزيرة المنفى.

لملم هُنري أشلاء ذاكرته وبدأ يسرد لها حياته منذ أن ودعها في نوميا. تزوج أبوه فرانسوا من فرنسية. نشب بينهما وبينه نزاع، قَّرر هُنري أن يترك المنزل ويعيش في ضواحي باريس. درس الطب في كليّة "ليون" وتخرج منها طبيبا سنة 1928. التحق بالخدمة الوطنية وأُرسل إلى الجزائر. أتم خدمته ثم التحق مجددا مع بداية الحرب العالمية الثانية بالجيش بصفة نظامية وأُرسل إلى أقاليم الصحراء في الجنوب الغربي بناء على رغبته. عمل طبيبا برتبة نقيب في سيدي بلعباس والأغواط ليصل إلى العين الصفراء سنة 1945 ضمن بعثة طبية للتكفل بوباء الطاعون الذي مس المنطقة في إطار مهمة طبية مؤقتة لمدة سنتين.

صادفت إقامة نوميا في العين الصفراء سنة 1946 مقتل الرائد أرداسنوف Adrassenoff بتاريخ 27 أوت في عين ورقة من قبل الإخوة مولاي وأودعت جثته في عجرفة

المستشفى العسكري لعين الصفراء. كان حدثا استثنائيا في المنطقة بلغ مداه ما وراء البحر المتوسط.

بعد أن تعافت من أزمتها الصحية، غادرت نوميا عيادة "الأهالي" رفقة هُنري، استلمت باقي متاعها من الفندق واستقرت في بيت ابنها في نفس الشارع الذي تقيم فيه صديقتها سوزان.

خلال فترة إقامتها بالعين الصفراء، تعرفت على عادات السكان وتقاليدهم وطرق كسب معيشتهم. وكانت كل ما رأته وما سمعته لا يختلف عمَّا كان يتداوله أبوها وجزائريو كاليدونيا في سمرهم وأحاديثهم. كانت أولى محطاتها في القصر زيارة ضريح الولي الصالح سيدي بوتخيل وجنبات القصر العتيق ثم أزقته المظلمة وبساتينه الغناء. استرجعت من ذاكرتها ضريح سيدي مولاي في نيساديو ومشاهد البذر وتصريف مجاري السقي تماما كالذي كانت تفعله في مزرعتها بكاليدونيا الجديدة.

نفس اللوحة الفنية:نخلات باسقات توحي بنظام اجتماعي وثقافي يظهر معالم الانتماء الحضاري.

سلَّم هُنري لنوميا مونوغرافيا العين الصفراء التي كان يحتفظ بها وأشار لها بالأصول التاريخية للعين الصفراء وبناء القصر الذي يعود إلى حوالي ثلاثة قرون قبل مجيء أولاد محمد بن شعيب. قدِموا إلى العين الصفراء سنة 1586 بعد مطاردة عنيفة من قبل قبائل "زوى" وأولاد سيدي الشيخ. اشتروا منطقة استقرارهم بواد البريج من أولاد عامر وأولاد النهار الموالين للملكة الزيَّانيَّة مقابل 1000 رأس مقايضة من الغنم. أعطاها حوصلة عن التركيبة الاجتماعية التي تصنع من تنوعها القبلي مجد هذه المنطقة.

أما الحي الأوروبي المحاذي للقصر الذي يتوسط المدينة والذي يفصله عنه وادي العين الصفراء فأُنشِأَ سنة 1882 بعد أن بنى الجنرال "دي لباسك" Delabecque

مركز القيادة إثر تهديدات جيش الشيخ بوعمامة قبل بناء ثكنة فيلق الشرف و"السبايس".

كان يسكن "الفيلاج" أي وسط المدينة التُّجَّار وأعوان السكة الحديدية وتركيبة هجينة من القبائل الصغرى والعرب واليهود والأسبان.

أُعجِبت نوميا بقصة إيزابيل إيبرهارت وبعض ما كتبته عن معاناة الجزائريين وظروف حياتهم وتقاليدهم. قرَّرَت زيارة قبرها في مقبرة المسلمين بسيدي بوجمعة وهي تستطرد في ذاكرتها لقب "لويس ميشال الصحراء" الذي كانت تُنعت به إيزابيل إبرهاردت.

ما فتأت تقف على قبرها وتقرأ ما هو منحوت عليه حتى تداعت عليها صوّر الماضي لتذكرها بأبيها بن عيسى وأمها كلودين والحاج بن سليمان الذين تركتهم في مقبرة نيساديو بكاليدونيا الجديدة واغرورقت عيناها وهي تتأمل تمدد المقابر في هذا الهدوء الرهيب.

زارت على سبيل السياحة معتقل جنين بورزق فوجدته صورة طبق الأصل للحصون العقابية في ديكوس. لقد جمعت بين أحجارها الفرعونية كل من كان يقلق السياسة الفرنسية من شيوعيين وزعماء بارزين في جمعية العلماء المسلمين وإسبان ضمن أفواج "تجمع العمال الأجانب" في معتقل حجرات المقيل الذي كان يدعى بـ"بوشنوالد الفرنسي في شمال إفريقيا" Buchenwald Français de l'Afrique du Nord. كانت هذه المعتقلات المحصنة مزروعة في كل مكان من الجزائر. من بينها معتقل الجلفة الذي أقام به الفيلسوف روجي غارودي Roger Garaudy والعريشة ولامبيز Lambèse بباتنة لاستقبال المرحلين منذ شهر جوان 1848 ثم البلديين الباريسيين. وقد قبع فيه مصالي الحاج ورفقائه مصفَّدي الأقدام بِكُرات حديدة وألبسة مخططة.

لم يكن عبود على دراية بمجريات الأحداث الخاصة بزوجته نوميا في العين الصفراء. كان آخر اتصال بها في اليوم الموالي لوصولها وبعدها انقطع كل خبر عنها.

حاولت نوميا عند خروجها من المستشفى الاتصال به هاتفيا لكن باءت كل محاولاتها المتتالية بالفشل. راودت نوميا شكوك سيئة عن حالة عبود الصحية. اتصل هُنري بصديقه جاك في براست وكلفه بزيارة عبود على العنوان الذي أعطته إياه نوميا.

دق الرسول في صبيحة اليوم الموالي على باب الشقة لكن لم يجد ردًّا. عاود مرَّات ومرّات إلى أن صادف جارًا فسأله عن عبود فذكر له أنه كان آخر عهد به منذ خمسة أيام يوم نقَلَه المسعفون إلى مصلحة الاستعجالات بمستشفى براست البحري.

التحق جاك بالمستشفى واستفسر عن عبود ودُلَّ على حجرته. وجده في مصلحة الأمراض الباطنية وفي حالة حرجة. لكن استطاع أن يُعرِّفَه بنفسه وينقل له تحية

وقلق زوجته نوميا من الجزائر. استبشر كثيرا بسماع أخبار نوميا وبلّغه رغبته في التحاقها به في أقرب الآجال.

روى جاك تفاصيل الزيارة في مكالمة هاتفية لهُنري وصَعُب عليه نقل هذا الخبر السيئ إلى نوميا. علمت نوميا بحقيقة أمر زوجها عبود وبكت وتأسفت لبعدها عنه في هذه الحالة. قررت حينها أن تسافر إلى فرنسا لترى زوجها على أن تعاود الزيارة إلى العين الصفراء. لم يكن بوسع هُنري مرافقتها إلى براست لالتزامات مهنية.

غادرت نوميا العين الصفراء عبر السكة الحديدية، مكثت في وهران أسبوعا في انتظار رحلتها إلى فرنسا. وصلت إلى مستشفى براست ووجدت عبود يصارع حالة حرجة. كانت تتردد على زيارته ولم تكن على انقطاع عن أخبار هنري. كان الهاتف واسطة تبادل الأخبار والاطمئنان.

توفي بعد أربعة أشهر فحزنت عليه وأعلنت الخبر لهنري وراسلت أهله في اليمن لإعلامهم بالوفاة. التحق هنري بها بعد أن أخذ إجازة قصيرة من مصالح الصحة العسكرية. رجعت نوميا مع ابنها إلى العين الصفراء. كان الاتفاق جليا بينهما:الرجوع إلى العين الصفراء إلى غاية نهاية خدمته العسكرية في أواخر مارس 1948. عادت الأمور إلى طبيعتها في إقامتها بالعين الصفراء وكانت سانحة أخرى لإتمام جولتها في إقليم العين الصفراء و كتابة مذكراتها.

قبل يومين من مغادرة نوميا وهُنري اتجاه فرنسا، قدم زعيم الحركة الوطنية مصالي الحاج في زيارة لعين الصفراء بتاريخ 20 مارس 1948 رفقة النائب بوقادوم وباقي بوعلام المترشح للتشريعيات. أقيمت على شرفه مأدبة غذاء في دار مرين بوبكر وحضر اللقاء كل من المناضلين:لمام محمد ولد بوحفص، رحو قدور، مكي أحمد، ليتيم منصور، باقي طاهر وبحضور باقي بوعلام

عن "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" و عدد من المناضلين. استقبل من طرف الكشافة الإسلامية على وقع أنشودة "بلادي...بلادي" و كان قائدا لها سي بوبكر سحنون.

شغَفُ الفرنسيين بتطور الوضع جعلهم يراقبون حركة الوفد الوطني وينصتون بتخوف كبير إلى شعارات المرددين أمام دار مرين بوبكر: "المستقبل للرجال الأقوياء والشجعان...الحرية تؤخذ ولا تعطى". وانتشرت فكرة ليتيم منصور بين أوساط الأوروبيين وفي مكاتب الإدارة الفرنسية المدنية والعسكرية انتشارا مربكا: "إن المواطن الذي له إمكانات شراء قنطار من القمح، عليه أن لا يشتري إلا 50 كغ ويوفر باقي دراهمه لشراء أسلحة".

عزمَت على الرحيل مع ابنها رغم شعورها بالإرهاق والتعب بعد إصابتها بنوبة صحية أخرى وتكرار شعورها بضيق التنفس وسرعة خفقان القلب. يبدو أن المرض

الذي دخلت به هذه المدينة ستغادرها به بعد أن أصر على ملازمتها. لكن على العموم ستغادر نوميا العين الصفراء وتبقى محتفظة بذكريات جميلة كانت جديرة أن تمحو ما علق بحياتها الصعبة من الإحن والمحن ولم يعد تحتفظ في ذاكرتها وهي تغادر محطة القطار ليلا إلاَّ بصيصا ضئيلا من الذكريات الموجعة. قررت المغادرة على أمل أن تعود إلى الجزائر في زيارة كذلك الجزائر العاصمة وسيدي بلعباس والبيض وبرج بوعريريج والمناطق الوسطى والشرقية التي لطالما سمعت بجمالها وبطولاتها التاريخية.

في براست قرر هنري أن يزور المستشفى البحري ليعرض أمه على الأطباء. دخلت المستشفى وأقامت به بعد إجراء كل الفحوصات والكشوفات مشاركةً بذلك جاكلين المريضة اللبنانية في غرفة مصلحة الأمراض الصدرية رقم 13.

صدر للمؤلف دردور سمير نور الدين: (derdour.samir@gmail.com)
-الخدمات الصحية أثناء الثورة التحريرية 1954-1962، عن دار هومه للنشر والتوزيع ببوزريعة، الجزائر، 2018
-ملحمة الجزائر، شرح تاريخي للإلياذة الجزائر لمفدي زكرياء، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2019
له بحث في مجلة ضياء موسوم ب "جريمة الإبعاد القسري في ظل القانون الدولي الإنساني – ترحيل الجزائريين إلى كاليدونيا الجديدة أنموذجا " 2016.
نال المؤلف بهذه الرواية جائزة أول نوفمبر 1954 طبعة 2021 في الجزائر-المرتبة الثانية في الرواية، المنظمة من طرف وزارة المجاهدين وذوي الحقوق.

تغوص هذه الرواية في عمق معاناة الشعب الجزائري في أحلك مراحل الاستعمار الفرنسي. إنها جريمة الإبعاد القسري التي كان ضحيتها زعماء ونشطاء الثورات الشعبية في أواخر القرن التاسع عشر.

من هي نوميا؟ هي فتاة من أب جزائري نُفي إلى كاليدونيا الجديدة في أعقاب ثورة سيدي الشيخ ومن أم فرنسية نُفيت هي الأخرى إثر ثورة البلديين الباريسيين. ترعرعت في وسط اجتماعي يسوده الاغتراب وتضارب الانتماء العرقي والديني في كاليدونيا. تروي نوميا قصة الإبعاد على لسانها ولسان أبيها ومن شهد مقاومة سيدي الشيخ والمقراني والحداد. الترحيل موضوع ذو شجون، لما فيه من القهر والظلم لحوالي ألفين من الجزائريين الذين شكلوا فيما بعد مجتمعا متناسقا في ثقافته ومعيشته إلا أن فطرة الحنين إلى الوطن لم تندثر مع مرور الزمن.فمنهم من حصل له شرف العودة إلى الجزائر ومنهم من قضى نحبه في المنفى ولا زال أحفادهم يتناولون ذكرياتهم بكثير من الأسى والآلام.